محمد عبد الله السمان

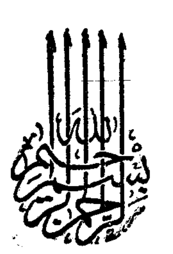


الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

دار الاعتصام


أولو العزم من الرسل


بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

الى الذين لفحهم وهج الكفاح

فاستظلوا بالثبات والصبر ..

والى الذين صهرهم لهيب المحن

فصيفوا فى بوانق الرجولة والمجد ..

والى الذين كان أولو العزم من الرسل

المثل الأعلى فى حياتهم :

عزيمة لا تعرف الوهن ..

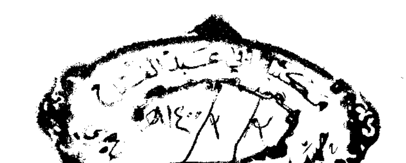
وعقيدة لا تعرف الملل ..

وثقة لا تعرف اليأس ..

الى هؤلاء ...

اقدم هذا الكتاب المتواضع ، راجيا أن يكون

اشعاعا يوقظ القلوب ، ويضىء الطريق ..!



بسم الله الرحمن الرحيم

((فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون ..!)) .

الاحقاف : ٣٥



مقدمة الطبعة الثانية

● لقد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى فى يناير ١٩٥٦ — أى منذ ثلاثة وعشرين عاما ، ونفدت الطبعة فى أقل من شهرين ، وذلك لأن ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم قد اختارته لمكتبات المدارس الاعدادية والثانوية وما فى مستواهما ..

● وقد تعمدت أن أتناسى هذا الكتاب مع اعتزازى به غاية الاعتزاز ، بسبب ما لقيته من عنت وارهاق نفسى كان مبعثهما ادارة المباحث العامة بوزارة الداخلية .. التى لم يثرها من الكتاب الا مقدمته والاهداء ، بل ان هذه المقدمة والاهداء أثارا انفعال المباحث العامة الى درجة التهديد لى بالزج بى الى السجن الحربى مرة أخرى ، والذى لم يكن قد مضى على خروجى منه الا بضعة أشهر ..

كان الذى تولى التحقيق معى بشأن مقدمة الكتاب ، هو العقيد حسن حلمى المفتش بالمباحث العامة يومئذ ، كنت قد صدرت الكتاب بهذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف :

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم .. كأنهم يوم يرون ما يوعدون .. لم يلبثوا الا ساعة من نهار ..بلاغ.. فهل يهلك الا القوم الفاسقون ؟

وكان أغرب سؤال وجهه الى مفتش المباحث العامة هو :

.. ماذا تقصد ؟ ومن تقصد بهذه الآية التى صـدرت بهـا الكتـاب ؟

وقلت :

ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصـوص السبب ــ كما يقـول علماؤنا وفقهاؤنا .

ولم يفهم المفتش ما قلت ، وأراد توضيحا يفهمه .. فقلت : ان كتاب الله لا يوجه الى زيد من الناس ولا الى عمرو منهم ، ولكنه يوجه بصفة عامة الى كل من تنطبق عليه أوصاف حالة من الحالات ولكنكم حريصون على أن تتعاملوا بالمثل الشعبى : الذى على رأسه ((بطحة)) يحسس عليها .. !!

***

● ولهذا الكتاب أكثر من قصة ، اذا تجاهلنا قصته مع المباحث العامة فى وزارة الداخلية ، لقد وضعت هيـكل الكتاب وخطـوطه الرئيسية ، وكثيرا من تفصيلات الدراسة عن أولى العزم من الرسل ــ صلوات الله عليهم وسلامه ــ وأنا فى السجن الحربى أواخر عام ١٩٥٤ ، وتحت تأثير ظـروف نفسية بالغة القسوة . دعـك من أساليب التعذيب الوحشية التى تلقى المختصون بها دراسـات فى النازية والفاشية .. دعك من رؤية الكلاب البشرية المسعورة ، وفى أيديها الهراوات أو السياط المتحفزة للعمل فى أية لحظة .. ودعك من الكثير من أساليب الارهاب البدنى ، والارهاب النفسى ،والارهاب الذهنى .. أساليب تجل عن الوصف .. وتسمو على البحث ..

ولم يكن التعذيب نفسه ذا تأثير بقدر ما كان التهديد بالتعذيب ..
أو كما يقال : ان توقع الشر أمر على النفس من وقوعه ..

● كان العثور على قلم معجزة ، كذلك المصحف والورق ، وقد تحققت معجزتا القلم والمصحف ، وبقيت مشكلة الورق ، وشاء الله ان يكون معنا فى نفس الزنزانة شـاب محظـوظ ، يصله بين الحين والآخر طعام شهى ملفوف فى احدى الجـرائد ، وكان من السهل على أن احتفظ بالهوامش البيضاء للجريدة وكلمـا أنهيت قصاصات مكتوبة خبأتها فى أطراف البطانية الخاصة التى رافقتنى أيام المحنـة ، وحين غادرت ـ الباسـتيل المصرى الناصرى ـ كانت سعادتى بالبطانية لا تقل عن سعادتى بالافراج نفسه عنى ..

وما أن استقر بى المقام فى مسكن جديد فى أول يناير ١٩٥٦ م حتى بدأت فى اعادة ما كتبت ، وانتهيت من الكتاب فى آخر يوم من الشهر ، وأعددته ليكون بالمطبعة فى صبيحـة أول يوم من شـهر فبراير .. وشاء الله أن يصلنى خطاب وقفى عن العمل بالتدريس من منطقة بنها التعليمية التى كنت نقلت اليها من القاهرة على اثر خروجى من المعتقل ، ولم يترك هذا ادنى أثر فى نفسى ، فلقد عشت شهورا مع أولىالعزم من الرسل ، وأعظم سماتهم ـ صلوات الله عليهم ـ الصبر والاحتمال ، بل لقد أحسست ـ وكأنما قد ولدت من جديد ـ فما أثقل قيد الوظيفة على من يريد أن يكون حرا ، ولاسيما اذا كان من حملة الأقلام .. الذين يقدرون أمانة القلم حق قدرها .. ولذلك عنـدما تقرر عودة الاخوة المفصـولين الى أعمالهم ، رفضت باصرار العودة الى القيود بعد أن نجانى الله منها ، وبعد أن ذقت بعضا من حلاوة الحرية ، وأقول بعضا من حلاوة الحرية ، لأن كل الحرية أمر شبه مستحيل ان لم يكن

المستحيل نفسه ، ما دمنا ــ نحن المسلمين ــ نعيش فى ظل أنظمة تؤمن بأن الحرية أخطر شىء يهدد وجودها ، وينغص صفو حياتها ..

وأقول : لا أمل فى الحرية الكاملة الا فى ظل نظام اسلامى أصيل ، الحكم فيه تكليف لا تشريف ، والحاكم فيه راع ومسئول عن رعيته .. لا امتياز له عن سائر الرعية ، بل هو أثقلهم حملا ، ولا مخصصات لأسرة الحاكم أو لبطانته أو لحاشيته .. والحاكم مرة ثانية ليس ظل الله فى أرضه ، وليس متمتعا بنظرية الحق الالهى المقدس .. بل اذا كان هو على حق وجب على الرعية اعانته ، واذا كان على باطل حق للرعية أن تسدده ، طاعة الرعية له واجبة ما أطاع الله فيها ، فاذا عصى الله فلا طاعة له على الرعية ، والحكم مرة ثانية شورى بين المسلمين ، لا استبداد فى الرأى ولا احتكار له ، والشعب تتكافأ دماؤه ، ويسعى بذمته أدناه .. والمرجع فى سياسة الحكم شريعة الله وحدها ، لا قيمة لرأى الأغلبية اذا كان هناك نص من شريعة الله ، فاذا لم يكن هناك نص ، فالرأى مايراه أهل الحل والعقد ..



● وبعد ..

فلا أجد ما أضيفه هنا الى ما سبق أن سجلته فى مقدمة الطبعة الأولى ، سوى اشارة عابرة ، الى أن الهدف من اهتمام القرآن الكريم بأولى العزم من الرسل : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. صلوات الله عليهم وسلامه .. أن يكونوا قدوة لنا فى حياتنا ، فى السلوك والايمان معا ، فالآية الكريمة تقول والخطاب موجه الى خاتم النبيين : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل .. ولا تستعجل لهم .. فالصبر تربية للسلوك ، وعدم الاستعجال

يدل على الوثوق فى الله عز وجل .. الوثوق القائم على الايمان ، فاذا كان الله عز وجل ، قد أراد من صفوة الرسل ــ صلوات الله عليه ــ أن يقتدى بأولى العزم قبله من الرسل ، وهو نفسه خاتمهم، فمن باب أولى نحن المسلمين ، ولاسيما فى هذا العصر الذى أصبح الاسلام فيه غريبا فى دياره ، والمسلمون العاملون الملتزمون غرباء فى ديارهم ، هذا العصر الذى استردت فيــه الجاهلية مكانها ، وأصبح لها المقام الأول لدى الأنظمة التى تتحكم فى رقاب الشعوب المسلمة المغلوبة على أمرها ، وأخيرا وليس آخرا .. هذا العصر الذى توارت فيه المثل والقيم ، وتخلت فيه المبادىء عن دورها القيادى ، لتحل محلها الشعارات الكاذبة ، واللافتات الخادعة ، والوعود التى هى والسراب سواء ..

ليس المهم أن نكثر من تلاوة القرآن ، وانما المهم أن نتــدبر ما نقرأ ــ ولو قليلا ــ والتدبر سبيل الى التطبيق ، والتطبيق هو دعامة الفلاح .. والله الهادى الى سواء السبيل .

المحــرم ١٤٠١ هـ

ديسمبر ١٩٨٠ م

محمد عبد الله السمان

القاهرة ص . ب ١٦٢١

مقدّمة الطّبعةِ الأولىٰ

منذ أمد بعيد ، قدر لى أن أعتزل الحياة — مرغما — زهاء نصف عام ، عشت خلاله متجردا من كل شىء الا من الايمان بالله ، والثقة فيه ، والاطمئنان اليه ، والتوكل عليه ..

كان الأمل فى نظرى أشبه بالوهم ، والرجاء أقرب الى السراب ، ولكن انقطاع الأمل أو الرجاء لم يترك فى نفسى ذرة من اليأس ، ولا فتيلا من الجزع ، وكنت أدرك أن الانسان قد يطيق الحياة بغير أمل أو رجاء ، ولكنه لا يقوى على هضمها اذا استقر فى قلبه ذرة واحدة من اليأس أو الجزع ..

كانت حياتى فى هذه العزلة مزيجا من الراحة المملة ، والخمول المرذول ، آكل وأشرب لأجوع وأظمأ ، وأجوع وأظمأ لآكل وأشرب ، وأنام لأستيقظ ، وأستيقظ لأنام ، بل كانت حياتى فى هذه العزلة كمية مهملة ، وقدرا مجهولا ، لا يكترث فيها لتوالى الساعات ، ولا لتتابع الأيام والشهور ..

● الكلام بالطبع عن محنة عام ١٩٥٤ ، ولم يكن مستطاعا لى أن أصرح وقت طبع الكتاب ، لذلك لجأت الى الرمز ..

ولكن هذه الحياة الصغيرة ــ مع تفاهتها ــ كانت شعاعا أضاء لى الطريق الى فلسفة الحياة الكبرى .

هذه الحياة التى يكدس البشر فوق ظهرها أكداسا من المظالم والشرور والآثام ، وأكداسا من الضغائن والأحقاد والآلام ، كأنهم ينوون الاقامة الى الأبد ، وقطع الطريق الى النهاية ، وكأن هذه الأكداس من المظالم والشرور والآثام ، والضغائن والأحقاد والآلام ، هى متعتهم التى يحيون بها ويعيشون لها ، يرتشفون من كئوسها رضاب الهناءة ولذة السعادة .

ومساكين هؤلاء .. ! لو قدر لهم أن يفقهوا فلسفة الحياة لأدركوا أنها مجرد ممر يوصلهم الى نهايتهم ، وأن سلوكهم هذا الممر هو الذى يكيف هذه النهاية : اما سعادة لا شقاء بعدها ، واما شقاء لا سعادة بعده .

هذه العزلة العصيبة التى أفلت فيها زمام الأعصاب . فأصبحت طريدة الخوف والكبت .. كانت فى مسيس الحاجة الى الترويح والترفيه ، ولكن فى حدود الامكانيات التى يسوقها القدر ، لأن الانسان فى هذه الفترة لم يك يملك شيئا ، بل هو نفسه كان ملكا للقدر يصرفه كيف شاء .

كان كتاب الله القبلة التى أتجه اليها ، ألقاه حينا فتهدأ الأعصاب لديه ويستقر الفكر ، وتتلاشى بين دفتيه كل ما تحمل الأحقاد من يأس وألم وجزع ، وينسى كل ما تحمله النفس من آمال تربطها بالحياة الدنيا ، وكنت أفتقده أحيانا كثيرة فأطوى على نفسى ، واستسلم للقدر استسلاما يجعلنى ريشة فى مهب العواصف ، وأنسى أن لى كيانا أو وجودا يملك حيزا من الفراغ .

لقد هيأ لى لقائى مع كتاب الله أطيب فرصة للنزول ضيفا على ساحة ((**أولى العزم من الرسل**)) نوح وابراهيم ومـــوسى وعيسى ومحمد ــ صلوات الله عليهم ــ هؤلاء القادة الذين قامت على عواتقهم أشق الدعوات ، بعد أن شقوا لها طريقا وســـط قلوب أقسى من الصخر ، وبذلوا أقصى الجهود حتى أثمرت وأينعت ثمارها ، وبعد أن عانوا فى سبيلها خلاصة ما ابتكرته عبقرية البشر من تمرد وتعنت وتجبر وعناد ، وصمدوا دون أن يمس قلوبهم ذرة من اليأس ، أو ينال عزائمهم ذرة من التخاذل .

أخذت فى هذه الفرصة أتجول فى كتاب الله مستقصيا كل آية تتصل بقصصهم ، ومستخلصا كل عبرة تفيض من نبعهم ، واستطعت بعد هذه الجولة الممتعة أن أدفع هذا المؤلف المتواضـــع الى دنيـــا الوجود .

ولم أهدف الى أن يكون هذا الكتاب سردا قصصيا ، ولا مرجعا تاريخيا ، ولا مستودعا للجدل ، بل هدفت الى أن يكون تحليـــلا لشخصيات أولى العزم من الرسل ، ولطاقات احتمـــالهم ونواحى عبقرياتهم ، ولظروف دعواتهم ونتائجها ، متعففا فى التحليل والدراسة عن المغالاة والتعصب والاسفاف ، وراجيا أن يشبع هذا الـــكتاب رغبة الشبيبة المثقفة ، وأن يكون عند حسن ظن الذين تعودوا أن يحسنوا الظن بهذا القلم المتواضع ــ والله الموفق .

محمد عبد الله السمان

القاهرة ص . ب ١٦٢١

أُصُولُ الرِّسَالاتِ

يَبحَثُ هَـذَا الكتابْ

فِي أولوا العَزمِ مِنَ الرُّسِلِ

- قـوة شخصيَاتهـمْ
- طاقات احتمَالهمْ
- نتـائج دعواتهـمْ

تمهيد

أصـول الرسـالات

ان الحياة من غير كفاح لاتعدل فى موازين الحقيقة والواقع أكثر من حفنة من تراب .

واذا كان للحياة غاية منشودة ، فانما هو النظام .. والنظام وحده ، ولو قدر للحياة أن توجد خلوا من النظام لكانت أشبه بالرأس الذى سلط عيه الصداع ، ليذيقه ألوانا من الفزع والاضطراب . ! والنظام هو خلاصة شتى ألوان الكفاح فى هذه الحياة ، والذى لا ريب فيه أن الرسل — صلوات الله عليهم — هم أول من حمل مشاعل الكفاح فى الحياة ، ليهبوا لها النظام المعتمد على دعائم الاستقرار .

وعلى عاتق البشر تقع مسئولية النظام فى الحياة ، وسوف يناقشون هذه المسئولية حين تنتهى مرحلة الحياة ، لتبدأ مرحلة الجزاء ، مع أن للبشر طاقة عقلية الا أنها محدودة ، ولذا اقتضت عدالة الله ، أن يمدها باشعاعات توضح لها الحق من الباطل ، والخير من الشر ، والهدى من الضلال ، وأن يحمل هذه الاشعاعات الرسل حتى لا يكون للبشر على الله حجة يتلمسونها ، أو عذر يلجأون اليه :

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما » .

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما . » ١٦٥ ، ١٦٦ : النساء

« وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين . » ٢٠٨ ، ٢٠٩ : الشعراء

لقد حمل هؤلاء الرسل الى البشر رسالات انسانيـــة لتقيهم غوائل الشر ، وتبعدهم عن موارد الهلكة ، وتحول بينهم وبين أمواج الفتن وعواصف القلق ، وتسبغ عليهم نعم الأمن والسعادة واليمن ، وهذه هى الغاية الفريدة التى التقت عنـــدها رســـالات الرسل جميعا .

ولو قدر للبشر أن يطبعوا على الهداية ، فلا يعصوا الله ماأمرهم ويفعلوا ما يؤمرون ـــ لكانت أجدر بهم حيـــاة الملائكة فى السموات السبع .

وفى كلتا الحالين لا يكون للحياة لذة ، وكانت العقول عبثا لاجدوى من وجودها .

انما أراد الله أن يخلق البشر ليكونوا خلفاءه فى الأرض ، ومنحهم العقول لتكون أداة تفكيرهم فى شـــئون حياتهم ، وبعث الرسل لتكون محك عقولهم ، ومرحلة الاختبار لها :

« ... ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما

آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بمـــا كنتم فيه تختلفون . » ٤٨ : المـــائدة .

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون مالهم من ولى ولا نصير . » ٨ : الشورى

« يابنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . » ٣٥ : الأعراف .

« وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . » ٤٨ : الأنعام

ان رسالات الرسل ضرورة اقتضتها الحياة ، والا عاش البشر الى الأبد فى ملحمة من الفزع والفوضى ، والقلق والاضطراب ، ومع أن هذه الرسالات لمصلحـــة البشر أنفسهـــم ، الا أن البشر كثيرا ما عارضوها ، واعترضوا طريقها — وتآمروا على مناوشتها . ولم تكن معارضة البشر لدعوات الرسل ولا مناوشتهم اياها ، بعائق لها عن السير فى الطريق الى النهاية ، لأنها بمثابة الدواء للمريض، واعتراض المريض على الدواء لا يثبط من عزيمة الطبيب .

لذلك تحمل الرسل كثيرا من عنت البشر ، وكثيرا من جهلهم ، وكثيرا من حماقتهم ، وكثيرا من تمردهم ، ولكن كل ذلك لم يثنهم لحظة واحدة عن القيام بمهمتهم ، لأن من سنن الدعوات أن يلقى الدعاة كل ألوان الأذى ، ويواجهوها بالصبر ، لأن الله لن يتخلى عنهم ، وليكونوا بعد ذلك القدوة للأجيال المكافحة التى ترغب فى الحيـــاة الصحيحة :

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا

حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأى المرسلين .)) ٣٤ : الأنعام .

واقتضت عدالة الله عز وجل أن لا يشــق على البشر ازاء دعوات الرسل ، فأرسل اليهم رسلا من بنى جنسهم ، يتكلمون بلغتهم ، حتى لا يكون هناك عائق فى فهم الدعوات وهضم معانيها ، ولا عذر لمن يتخلف عن ركب الهداية :

((**وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم .**)) ٤ : ابراهيم .

والمنهاج الذى سلكه الرسل واضح كل الوضوح ، وقد سلكوه فى مرحلتين اثنتين :

المرحلة الأولى : مرحلة العرض ، وكانت بضاعتهم فيهــا الأساليب البينة الواضحة ، التى تدعو الى قواعد دعـــواتهم ، من عقيدة واستقامة وطاعة ، وفى هذه المرحلة كان لهم سندان : أولهما ما نزل به الوحى من كتب وصحائف ، وثانيهما ميزان المنطق ، حتى اذا قدر للناس الهداية ، قام مجتمعهم على أســـاس من الرضــا والاقتناع .

والمرحلة الثانية : مرحلة القوة اذا ما فشلت أساليب الحجة والمنطق والحكمة والموعظـــة الحسنـــة ، وقد أردف القرآن نزول الكتاب والميزان ، أى المنطق ، بنزول الحديد الذى يعبر عن القوة حتى يكون الوسيلة الأخرى لرد كيد المعارضين ، لا ــ لاقناعهم .. ولكن لحماية الدعوات من شرورهم ومؤامراتهم :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قـــوى عزيز . »

٢٥ : الحـديد

ونستطيع أن نلخص ما قدمناه ، فى أن الرسالات انما تقوم على أصول ثلاثة أساسية : أولها ، المنهاج الذى يتضمن مرحـلة العرض المنطقى ، ومرحلة الكفاح الذى تكيفه ظروف الرسالة ، وثانيها الغاية التى تنحصر فى الاستقرار الذى تسعد البشرية به .

وثالثهـا : النتيجة التى تنتهى بتأييد الحق وخذلان الباطل ، وتصبح سنة مطردة من سنن الحياة .

* * *

المعجزات

كانت ظروف بعض دعوات الرسل مضطرة فى بعض الأحايين الى آيات خارقة للعادة ، ولم تكن هذه الآيات أساسا من أسس الرسل ، ولا أصلا من أصولها ، ولا وسيلة من وسائل الاقتناع — لأن هذه الدعوات قائمة على العقل والمنطق والحجة ، لتتركزمعانيها الحية فى قلوبهم .

ولو تتبعت بامعان ظروف دعوات الرسل ، لوجدت أنها انما كانت تناقش العقول والأفهام والمدارك والاحساسات ، لتنفذ معانيها السامية الى أعماق النفوس .

((ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا : انا كفرنا بما أرسلتم به ، وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب)) .

((قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان

الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . (٩ — ١٢ : ابراهيم)

أرأيت فى هذا الحوار كيف أن رسل الله عولوا على المنطق فى محاجة القوم المعارضين ، الذين الغوا عقولهم ورفضوا المنطق ، وطالبوا بسلطان مادى ؟ ولو أن رسل الله اتجهوا الى الله ليأتيهم بسلطان مادى ، لكان ذلك منهم استجابة لعقلية القوم المعارضين ..

واكثر ما حدث فى عهود أوائل الرسل من الآيات الخارقة ، كان بمثابة العقاب لأقوامهم ، والعظة والعبرة لمن بعدهم ، حتى يمهد للرسالات القادمة التى سوف يتسع لها المجال ، ويكتب لها النفوذ فى الأرض .

حدث الطوفان فى أيام نوح لاغراق العصاة من قومه ، وارسلت ريح صرصر عاتية على قوم عاد ، لأنهم عصوا رسولهم هودا ، واخذت الصيحة قوم ثمود لأنهم عصوارسولهم صالحا ، وهؤلاء الأقوام العصاة أهلكوا عقابا لهم ، وبقيت ذكراهم وآثارهم عظة وعبرة لغيرهم ، وحدثت آيات خارقة للعادة فى عهود بعض الرسل كابراهيم وموسى وعيسى ، والظروف المحرجة هى التى دعت اليها، لأن الدعوات الحية لا يمكن أن تعتمد على الخوارق ، ولا يمكن أن تكون الخوارق أصلا من أصولها ، الا اذا لم يقم للعقول وزن .

فدعوات الرسل اعتمدت كل الاعتماد على المنطق ، لأنها مناقشة للعقول ، أما الخوارق من الآيات التى حدثت لتأييد الرسل فقد كانت الظروف الملحة هى التى كتبت لها الحياة .

والمتعمق فى دراستها ، يتأكد لديه هذا ، كما دعت اليها أيضا فى أحوال لم تكن فيها تأييدا لنبى أو رسول ، لأنها حدثت فى غير عهود الأنبياء والمرسلين ، وكان الهدف منها الدليل على قدرة الله، والذى يتصفح كتاب الله يجد الكثير منها . ففى سورة البقرة ،قصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، وقال كيف يحيى الله هذه بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ليجد طعـامه وشرابه لم يدركهما أدنى تغيير ، وفى سورة الكهف ، قصة أصحاب الكهف الذين بعثهم الله بعد أن أماتهم ثلثمائة عام وازدادوا تسعا، وفى هذه السورة أيضا ، قصة اللذين ضرب الله بهما مثلا ، أخذ أحدهما الغرور بجنتيه ، فأحيط بثمره وأصبـح يقلب كفيه حسرة على هلاكها وندما على جحوده ، وفى سورة القلم قصة أصحاب الحديقة الذين دفعتهم الأثرة الى الاصرار على حرمان المسـكين حقه من ثمرها ، فطاف عليها طائف من ربك فأصبحت كالصريم — سوداء محترقة — وفى سورة الفيل ، قصة أصحاب الفيل ، الذين هاجموا البيت الحرام بغيا وعدوانا ، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ..

ونحن لا نحاول أن نتأول ما سرده القرآن من الآيات الخارقة لنخرجها عن حقيقتها كما يحلو للكثير من المفتونين الذين تسحرهم آيات العلم الحديث الخارقة ، فلا يقوون على تأويلها ، ولا على مجرد الشك فيها ، ولكنهم ازاء آيات الله ، لهم السنة طويلة على تأويلها وايهام العقول بالتشكيك فى حدوثها .

ولا نحاول أيضا ، أن نتجاوب مع العامة فى احاطة الخوارق بهالة من المغالاة ، لاخراجها عن طبيعتها ، وابعادها عن مواطن العظة والعبرة منها ، أو نتجـاوب مـع كثير من المفسرين الذين يتعدون حدود القرآن فى اغداق الخيال على هذه الآيات ، وللقرآن فلسفته فى ايجاز الألفاظ لأن هدفه العبرة يوجه الأذهان اليهـا ،

ويفتح القلوب لها ، وقد أتعب بعض هؤلاء المفسرين أنفسهم فى حشو لا فائدة منه ، مستعينين بالاسرائيليات الملفقة التى لايعتمد عليها ، ولا يطمأن اليها .

ونستطيع بعد ذلك أن نقول : ان المعجزات بالنسبة للرسل لا ريب فيها ، ولكن الظروف الملحة هى التى دعت اليها ، فأين كان يسير موسى وبنو اسرائيل لو لم يشق الله لهم فى البحر طريقا يبسا ؟ وكيف كان ابراهيم يستطيع اتمام رسالته ، لو لم يجعل الله النار بردا وسلاما عليه ؟ وكيف كان يستطيع عيسى — المجهول الأب — أتمام رسالته فى مجتمع ممعن فى الترف والغواية لو لم يؤيده الله بالكثير من الآيات ؟ . وكيف كان يمكن لرسالة محمد أن تبقى الى أن تقع السماء على الأرض ، لو لم يؤيدها الله بالقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ؟؟.



بشريّة الرّسُل

بشرية الرسل لا تحتاج الى مناقشة ، لأن رسالاتهم موجهة الى البشر ، ويكون من الشذوذ ان تحمل هذه الرسالات الى البشر ، مخلوقات من الملائكة أو الجن لا يألفها البشر ، لأنها تعيش فى عوالم مجهولة عنهم ولأن لها فى الحياة أساليب لا تهضمها عقليتهم .

وعدالة الله اقتضت أن يكون حاملو الرسالات الى البشر من البشر أنفسهم ، لدرايتهم بطبائع البشر وعقلياتهم وتفكيراتهم ، وغرائز الخير والشر الكامنة فى نفوسهم ، ولسهولة استكشاف خبايا أهوائهم ودقائق نواياهم .

لا نكران فى بشرية الرسل من حيث خلقتهم وطبيعتهم ، لأنه ما من رسول أرسل الا كان لسان حاله انه مخلوق من البشر ، وله طاقات البشر وامكانياتهم ، ولا يزيد عليهم الا ماخصه الله من هبات أبرزها : قدرته على تحمل المشقات ومقاومة العقبات ، وبذل الثمن بعد ذلك من راحته وأعصابه .

والعجيب أن بشرية الرسل كانت احدى العقبات التى اعترضت دعواتهم ، والأنانية وحدها هى التى كانت تدفع الى المعارضة علية القوم الذين كان يعز عليهم أن يظفر بشرف الرسالة غيرهم ، ويظهر أن حكمة الله كانت دائما وراء اصطفاء الرسل من الأفراد العاديين ، لتقل حدة الأنانية ، فلو قدر للرسل أن يكونوا من علية

القوم ، لانضم التنافس الى الأنانية فى اقامة العراقيل فى سبيل دعواتهم .

أما الذى كل النكران فيه ، فهو أن نرفع هؤلاء الرسل فوق مرتبة البشرية ، ونمنحهم فى بعض الأحايين صفات الألوهية ، ونحوط حياتهم بهالة من الخوارق ، معظمها من ابتكار عقول تجيد كيف تنسج من الخيال قصصا للتسلية ، ولتعتبرها بعد ذلك مقياسا لتقدير الرسل .

وهناك عقليات تأبى الا أن تمنح الرسل جميعا العصمة المطلقة من الخطأ منذ ولادتهم الى لقائهم ربهم ، واذا استسغنا هذه العصمة للرسل بعد تكليفهم الرسالة ، ليكونوا قدوة طيبة ، فكيف نستسيغها لهم خلال الفترة التى سبقت تكليفهم ، الا اذا رفعناهم فوق مرتبة البشرية وهو مالا يقره منطق .

وهدى الاسلام : الكتاب والسنة معا ، واضح فى أن الرسل معصومون من الكبائر ، ومن تعمد الصغائر ، وأن لهم حق الاجتهاد كبشر ، والعصمة المطلقة لهم ، فيما يتصل بالوحى ، وقول الحق تبارك وتعالى لرسوله — عليه السلام — وشاورهم فى الأمر ، يعطيه الحق فى الاجتهاد .

وهناك من العقليات ما يمنح الرسل العصمة فى الرأى ، بحجة انهم لا ينطقون الا بوحى ، وهذه العقليات تحط من قدرهم لأنها تجعل منهم أبواقا تذيع ما يوحى اليها — فتسلبهم التفكير الذى هو أعظم منح الخالق للبشرية ، ولا تحاول أن تفقه هذه العقليات أن كتاب الله عز وجل ملىء بألوان العتاب الموجه الى بعض الرسل، نتيجة أخطاء فى الرأى أو عدم التوفيق فى التفكير .

ليست انواع العصمة التى نمنحها نحن الرسل من تلقاء عقلياتنا ، ولا الوان الخوارق الحالية التى ننسبها الى حياتهم — مقياسا لتقديرهم ، لأن زوايا التقدير تنحصر فى المهمة الشاقة الملقاة على كواهلهم ، والصعاب التى يواجهونها بثبات وصبر وثقة .

ان العصمة لله وحده — وما فى ذلك أدنى ريب — وما أخذ على الرسل بنص القرآن مما دعا الى عتاب الله لهم ، لا ينقص من اقدارهم ، لأن عدم السداد فى اجتهاد مع التجرد من الهوى لاشىء فيه ، وجميع الرسل كانوا مجردين من الهوى والغرض ..



أولو العزم من الرسل

الرسل جماعة من البشر اختارهم الله سبحانه واصطفاهم ، وهيأهم للقيام بأعباء الرسالات التى تنهض بالبشرية ، وتأخذ بيدها ، وتهيىء لها الحياة الآمنة المستقرة ، والعيشة الهنيئة الراضية .

وهؤلاء الصفوة المختارة الذين نالوا شرف اسناد مهمات شاقة اليهم ، صيغوا فى قالب واحد وصقلوا بمادة واحدة ، واشتركوا جميعا فيما يمتاز به الداعية المرسل من عند الله ، من الكمال الخلقى ، والكمال العقلى ، والكمال النفسى .

وهذه الاعتبارات كلها تضع الرسل فى ميزان واحد ، لاتفرقة بينهم فى شىء ، وتجعل الايمان بهم جميعا دون تفرقة ، أصلا من أصول الايمان العامة :

« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير » . (٣٨٥ : البقرة)

« ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا

بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما)) .

(النساء : ١٥٠ ــ ١٥٢)

● لا تخيروا بين الأنبيـــاء ..!

هـــذه كلمة قالهـــا النبى ــ صلوات الله عليه ــ كما جاء فى الصحيحين ، حين بلغه أن مسلما صفع يهوديا سمعه يقول : « والذى اصطفى موسى على البشر » فقال له : أى خبيث .. على محمد ؟ فغضب النبى ، وقال كلمته المشهـــورة الخالدة : لاتخيروا بين الأنبيـــاء !!..

ان معدن الرسل جميعا واحد ، وقد صيغوا فى قالب واحد ، وصقلوا بمادة واحدة ، وهذا مما لاريب فيه ، والذى لاريب فيه ، أيضا أن هناك اختلافا فى ظروف دعواتهم ، وتباينـــا فى مهماتهم ، وهذه سنة الله فى خلقه ، فعقـــول البشر لا يمكن أن تستمر على نمط واحد فى كل الأزمنة ، وتجاوبهم مع الدعوات الاصلاحية انما يقاس دائما بعقولهم .

وظروف دعوات الرسل المختلفة ، هى التى كيفت لون المشقة التى لاقاها كل منهم ، وليس من العدل أن يسوى بين الرسول الذى دعا قومه الى الله بضع سنوات دون أن يناله كثير من الاذى ، وبين الرسول الذى لبث سنوات طـــوالا ذاق خـــلالها كل الوان الأذى والعنت والعناد .

ومن هنـــا ، كان تفضيل الله بعض الرســـل على بعض ؛

ووضعهم فى درجات تتلاءم مع مقدار ما لاقاه كل منهم ، وما تحمله من مشقة خلال القيام بواجبه :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ،ورفع بعضهم درجات .. » . (٢٥٣ : البقرة)

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ... » ٥٥ : الاسراء.

وأولو العزم من الرسل ، صفوة هؤلاء الصفوة ، واجهوا لونا من الكفاح لم يباشره غيرهم ، وكانت دعواتهم من أبرز الدعوات التى احتلت فى تاريخ الدعوات مكانة مرموقة ، وشغلت ـــ وما زال يشغل بعضها ـــ فى العالم أكبر حيز من الفراغ ، ولاقت دعـــواتهم أشق نضال عرفته الدنيا ، وخرجت منـــه ظافرة منتصرة وســـط هالات من النجاح والتقدير .

كان أولو العزم مثلا أعلى للرسل ، لمـــا وهب الله لشخصياتهم من طاقات الاحتمال مايدهش العقول ، وليس أدل على هذا من أن يوجه الله عز وجل رسوله محمدا الى الاقتداء بهم فى مجال الصبر والاحتمال :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم .. » (٣٥ : الأحقاف)

وقد أشار القرآن الكريم الى أولى العزم من الرسل فى بعض آياته ، وهم : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـــ صلوات الله عليهم ـــ ليكونوا مثـــلا أعلى للمناضلين من أصحاب المبـــادىء السامية ، والدعوات الحية ، كما كانوا المثل الأعلى للرسل والأنبياء

من قبل ، واشارة القرآن اليهم وردت فى صورة التخصيص بعد التعميم :

« واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنـــك ومن نوح وابـــراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » .
٧ : الأحزاب

ووردت فى صورة التخصيص والتعميم :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » ١٣ : الشورى .

ان هناك مقومات وضعت أولى العزم فى هذه المرتبة ، وقـــد اشترك الخمسة فى هذه المقـــومات ، ويمكن أن يقال : ان بعض الرسل يشـــترك فى هذه المقومات ، ولكن لا يمكن أن يقـــال : ان هذا البعض قد بلغ الدرجة التى بلغها أولو العزم .

وأهم هذه المقومات وأبرزها ، قوة الشخصية ، وطاقةالاحتمال التى تجلت فى أشخاصـــهم ، واذا أضفت الى هذين ، الظـــروف القاسية التى أحاطت بدعـــواتهم ، والجهـــود المضنية التى بذلت لتحقيق أهدافها ، والنتائج التى أحرزتها دعواتهم ـــ تأكد لديك أن أولى العزم من الرسل جديرون بهذا الشرف الذى طوق أعناقهم .

وهذا البحث انما يعتمد على هذه العناصر الثلاثة ، التى ربطت بين أولى العزم من الرسل ، ووضعتهم فى المرتبة التى كانت جديرة بهم ، وهم جديرون بها ، وتشرفت بهم ، وتشرفوا بها ، وسنلقى أضواء على هذه العناصر الثلاثة فى هذه الدراسات حتى يكون البحث :

دراسة تحليلية لأشخاصهم ، لابراز القوى الكامنة فيها .

ودراسة لطاقات الاحتمال التى تمتعوا بها ، لوضعها فى اطار لائق بها ، وللظروف التى أحاطت بدعواتهم للوقوف على دقائقها ، ودراسة للأثر الذى جاء نتيجة لنضالهم فرفعهم الى قمة المجد والتقدير .

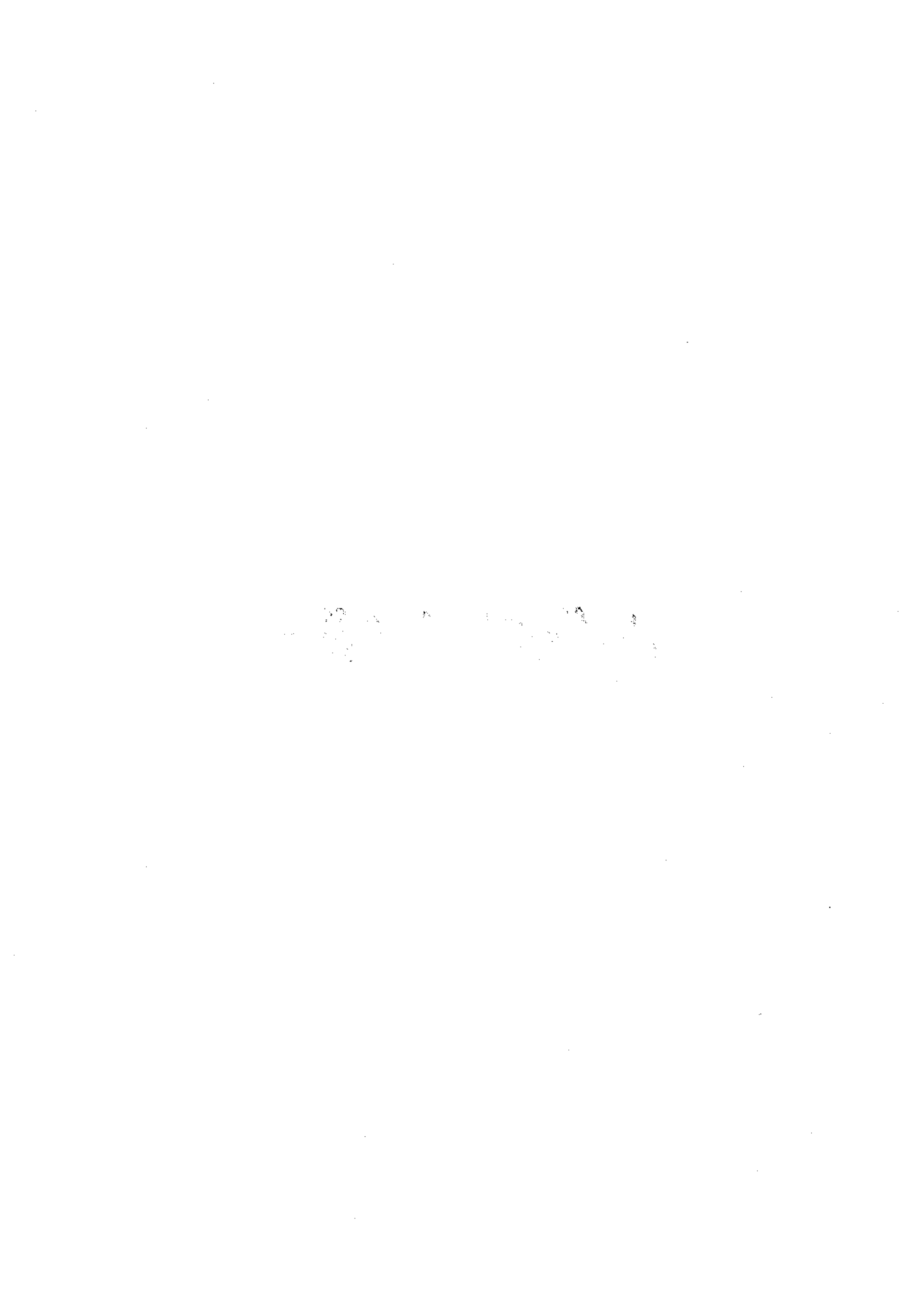
ومن خلال هذه الدراسات سنطرق مواضع العبرة ، ومكامن الفلسفة ، ومواطن المعانى الحية التى تنهض بالشعوب ، وتنهض بالدعوات ، وتسمو بالمثل العليا فى هذه الحياة .

وستكون هذه الدراسات ، خالصة من الأوهام التى لا يقام لها وزن ، والخرافات التى لا يقرها عقل ، والحشو الذى زحم قصص الرسل ليجعل منها مجالا للتسلية وقتل أوقات الفراغ .

وخلاصة القول : انها دراسات تقدم لنا صورة صادقة واضحة عن أولى العزم من الرسل ، يتجلى فيها ركائز العظمةالتى قامت عليها دعواتهم ، ومقومات البطولة التى منحها الله أشخاصهم فكانوا من أولى العزم ، وحسبهم هذا تقديرا وشرفا .



١ – أولُ الرُّسُل



نوح عليه السلام

كان نوح اول رسول حمل الى البشر رسالة ذات دعوة ،وأول رسول واجه مجتمعا بدعوة ذات منهاج ، ولذلك أطلق عليه هذا اللقب دون أن ينازعه فيه غيره .

وآدم عليه السلام كان نبيا ، وقد ذكر اسمه فى القرآن فى آيات عدة ، كلها تدور حول قصةخلقه من تراب ، وسجود الملائكة له ، ثم قصته مع الشجرة وابليس ، ولم يرد فى القرآن أدنىاشارة صريحة كانت أم ضمنية الى أنه كان رسولا ..

ولم يشر القرآن — وهو المصدر الأول — الى هذا اللقب ، ولا الى ما يؤيده ، ولكن حديث البخارى الخاص بالشفاعة ، ذكر أن الناس يوم القيامة يقصدون نوحا ويقولون له : انك أنت أول الرسل الى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ... اشفع لنا الى ربك .. وحسبنا هذا دليلا لا يحتاج الى تأكيد .

وشخصية نوح لها تقديرها وسط اخوانه من الرسل والأنبياء. وقبل أن نحاول تحليل هذه الشخصية الفذة وتكييفها ، يحسن بنا أن نستعرض بعضا من الآيات القرآنية التى اهتمت بشخصيته، لنضعها فى الاطار اللائق بها ، ولا نقصد الآيات الكثيرة التىتعرضت لقصته ، لأن لها مجالا آخر من هذا البحث ، وانما نقصد الآيات التى أبرزت شخصيته كرسول من أولى العزم ، ويتجلى هذا

فى الاكثار من ذكر أسمه فى مناسبات عدة ، اما على سبيل اصطفائه مع عدد قليل من الرسل .

« ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . » ٢٣ : آل عمران .

واما على سبيل الاهتمام باسمه بطريقة ملفتة :

« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده .. »
(١٦٣ : النساء)

« .. ووهبنا له اسحق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل .. » . (٨٤ : الأنعام)

« ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ... » ٢٦ : الحديد .

واما على سبيل الثناء عليه بأسمى الصفات :

« ذرية من حملنا مع نوح ، انه كان عبدا شكورا » .
(٣ : الاسراء)

« سلام على نوح فى العالمين . انا كذلك نجزى المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين » . (٧٩ — ٨١ : الصافات)

وشخصية نوح تمتزج بكثير من نواحى العظمة ، وليس لدينا من المصادر الوثيقة — كما قدمنا — غير كتاب الله الذى تعرض لقصته باسهاب ، وبعض الأحاديث الصحيحة التى تعد على

الأصابع ، حتى نحاول أن نكيف هذه النواحى فى نطاق واسع ، ولأن نقف عند حدود ما نطقت به الآيات القرآنية ، خير لنا من أن نعبىء أكداسا من مصادر لا يطمأن اليها .

ان الاتزان فى حياة نوح ، كان ناحية من نواحى العظمة ، وأعتقد أن هذه الناحية كان لابد من توافرها فى داعية هيىء لدعوة تستغرق زهاء عشرة قرون ، وهى أطول مدة لبثها داعية — وعرفتها الدنيا فى تاريخ الدعوات :

((لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين . قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون)) . (٥٩ — ٦٢ : الأعراف)

هدوء فى الأسلوب ، وهدوء فى المناقشة ، وهدوء فى المنطق ، وهدوء شامل لا تلمس بينه انفعالا نفسيا ، ولا ثورة جدلية ، ولا هياجا منطقيا ، هدوء لزم نوحا فى مجال العرض الأول لدعوته ، وهى سياسة الحزم التى يجب ألا تفوت داعية يبغى لدعوته الذيوع والاستقرار .

والشجاعة ناحية من نواحى العظمة فى شخصية نوح ، والشجاعة للداعية ألزم ما يكون له ، وهى لا تتعارض مع الاتزان فى شىء لأنهما شيئان متلازمان يتمم كلاهما الآخر ، فالاتزان اذا خلا من الشجاعة كان ضعفا ، والشجاعة اذا خلت من الهدوء كانت اندفاعا :

((واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم

مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون . فان توليتم فما سألتكم من اجر ، ان أجرى الا على الله وأمرت أن اكون من المسلمين . » ٧١ــ٧٢ يونس .

والصراحة ناحية ثالثة من نواحى العظمة فى شخصية نوح ، وهى والشجاعة أيضا ، شيئان متلازمان يتمم كلاهما الآخر ، واذا كانت الشجاعة تضفى على الاتزان ثباتا ، فان الصراحة تضفى على الشجاعة اجلالا وهيبة ووقارا .

لقد حاول قوم نوح أن يطعنوا فى نبوته باعتباره بشرا ، كأن البشرية فى نظرهم ليست أهلا لحمل أعباء الدعوات والرسالات ، والحسد وحده هو الذى سول لهم هذا الهراء الذى لا يمت الى المنطق بسبب .

وحاول قوم نوح أن يطعنوا فى نبوته من جانب تكوينهالشخصى، حيث اتهموه بالجنون .

وحاول قوم نوح ان يطعنوا فى نبوته من ناحية أتباعه ، لأنه لم يتبعه ــ على حد زعمهم ــ الا أراذل القوم ، والكبرياء وحدها هى التى هيأت لهم هذا الحمق ، وغرتهم حتى اعتبروا أنفسهم أنها أسمى من أن تتجاوب مع دعوة ، تجاوب معها الأراذل والضعفاء .
والضعفاء .

فهل حاول نوح أن يقابل عنتهم بالمداهنة أو الالتواء ..؟.

كلا ... ! انه تسلح بالصراحة وحدها ، لأن المجال لم يكن

مجال حرب يضطر فيها الى الخديعة والالتواء ، ولكنه مجال دعوة تناقش العقل ، وتؤسس للعقيدة ، وتمهد للايمان ، ولا يصلح فى هذا المجال غير الصراحة .

لقد صارح نوح قومه بأن دعوته ليست الزاما ولا اكراها لمعاند عميت عليه ، وصارحهم بأنه بشر متعمــق فى البشرية ، لا يدعى ملك خزائن الأرض ، ولا القدرة على كشف الغيب ، ثم القى أخيرا القنبلة المدوية ، التى أبان فيها عن تمسكه بأتباعه ، وانه لا يمكن أن يوغر صـــدره عليهم ليتخلى عنهم بحـــال من الأحوال :

((فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينــة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * وياقوم لا أسألكم عليه مالا ، ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين .)) ٢٧ ـــ ٣١ : هود .

وقوة العزيمة ناحية رابعة من نواحى العظمة فى شخصيـــة نوح ، والعزيمة القوية لبنة مهمة فى بناء الشخصية العظيمة ، والشخصية اذا منحت الاتزان والشجاعة والصراحة ، كان لابد لها من العزيمة ، لأنها بمثابة الشريان للجسد ، والمحرك للطائرة ، ونوح قد ضرب المثل الأعلى فى قوة العزيمة ، وهل هناك عزيمة أقوى من عزيمة تصمد أمام قوى الشر والعناد زهاء عشرة قرون،

دون أن تهن أو تلين ؟ وأمام الوان من التهديد والوعيد ، دون ان ينال الضعف أو التقهقر منها ذرة واحدة ؟

« قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين . قال رب ان قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين . » ١١٦ — ١١٨ : الشعراء

وحين كلفه الله بناء السفينة ، وبدأ يؤدى واجبه ، سنحت الفرصة لقومه أن يناوشوه بنظرات الاحتقار ، ويسلقوه بألسنة حداد لا تبذل غير الوان من الازدراء والسخرية ، فهل استطاعوا أن ينالوا من عزيمته ، أو يثبطوا همته ، أو ينفذوا الى قلبه شيئا من التردد أو القلق ؟

لئن قدر للنملة العرجاء ان تنال من الحديد الصلب ، أو الندى الضاوى أن ينال من الأرض الصلد ، أو النسيم الوديع أن ينال من الصخر الأصم — لقدر للسخرية ان تنال من عزيمة نوح .

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

(٣٨ ، ٣٩ : هود)

والعاطفة ناحية خامسة من نواحى العظمة فى شخصية نوح ، وتبلغ العاطفة أرقى منازلها حين تكون عاطفة أبوية ترفرف بحنانها على فلذة كبد ، وقد تجلى سمو هذه العاطفة الأبوية فى قضية ابنه الذى شق عليه عصا الطاعة ، وتخلف مع من تخلف من العصاة الكافرين .

لقد رأى نوح الأمواج تتقاذف فلذة كبده ، فلم يطق صبرا ، وناداه أن يركب معـــه ، وهنا يضطر الانســـان الى الوقـــوف لحظات ..! فكيف نادى نوح عاصيا متمردا على الله ، وهو على يقين من أن روابط الدم ليس لها خواطر فى مجال الدعوات ؟

هل كان يطمع فى ايمانه كما يتصور بعض المفسرين ؟ لـــكن هذا التصور يتلاشى حين نفهم أن نوحا قـــد أوحى اليه ، أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن.

لـــاذا ننسى أن نوحا انسان ذو احساس عاطفى عميـــق ، انه بشر متعمق فى البشرية ، كما هو نبى متعمق فى النبوة ؟ وأن هذا الاحساس العاطفى العميق هو الذى أذهل نوحا عن الحقيقة المرة فى أحرج الأوقات ؟؟

لقد غرق ابنه بعد أن ابتلعه الموج ، ومع أن الله نهاه عن أن يخاطبه فى الظالمين ، الا أنه تهافت فى الرجاء ، مناديا ربه أن ينقذ فلذة كبده من هلاك محقق ، والاحساس العاطفى العميق هو أيضا الذى تحـــرك فى قلبـــه فأذهله عن الحقيقـــة المرة فى أعصـــب اللحظات .. !

لقد كان محمد يعلم تماما ان المشركين لا ينقذهم توســـل او رجاء ، ومات عمه أبو طالب على غير ما كان ينتظر له من الهداية، فهل حالت هذه الحقيقة المرة دون أن يكون لمحمد عاطفة نحو عمه ؟ لقد ظل يستغفر له حتى نهى عن الاستغفار له .. !

فهل يلام نوح على تصرفه ، الا اذا كان من الممكن لوم انسان له قلب كبير ، وله احساس عميـــق ، وله عاطفـــة ابوية تستمد الحنان من قلبه واحساسه ؟

ولقد دعا نوح ربه من أجل ابنه ، وألح فى الدعاء فى ظروف لا تحتمل ذرة من الجدل ، والعاطفة الأبوية هى التى أذهلته عن الحقيقة المرة ، فانفصلت شخصيته كانسان عن شخصيته كرسول صاحب دعوة مسئول ... واستسلم فى النهاية للأمر الواقع ، بعد أن أدى واجبه كأب انسان ــ كما أداه كنبى رسول :

« ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى ، وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غــير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظــك أن تكون من الجاهلين . قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم . والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » .

(٤٥ ــ ٤٧ : هود)

هذه بعض نواحى العظمة فى شخصية نوح ، اذ أن من العسير على باحث أن يلم ــ مهما كان ــ بجوانب العظمة كلها فى رســـول من أولى العزم ، ولكن حسبنا أن نقدم بعض هذه الجوانب التى نعتبرها العناصر المهمة فى تكوين الشخصية العظيمة .!

لقـــد منح نوح الاتزان والشـــجاعة والصراحـــة والاحتمال والعاطفة ، فجعلت هـــذه العناصر منه رسولا من أولى العزم ، وانسانا متوجا بتاج الأبوة الصادقة ، التى قل أن يتوج به انسان .

* * *

طاقة الاحتمال

ان طاقة الاحتمال هى المقياس الصادق لشخصية الرسول ، وهذه الطاقة هى التى تكيف قيمة الشخصية وتعبر عن قوتها ، وتضعها فى اطار من التقدير الصحيح الذى تستحقه .

وطاقة الاحتمال فى الرسول يرتفع قدرها حتى يبلغ القمة ، اذا استطاع أن يتمتع بثقة عميقـــة فى الله لا يرتقى اليها ذرة من الشك ، وقلب ثابت ملىء بالأمل لا يصـــل اليـــه همســـة من اليأس ، وأعصـــاب من حديد لا تثيرها أقسى العواصف ولا أعنف الزلازل .

فماذا كان نصيب نوح من هذه المثل والقيم ؟ .

أما الثقة العميقة فى الله ، فقد كانت الدعامة التى ارتكزت عليها عقيدته ، وأجلى مظاهر هذه الثقة ، أنه أعلن منذ اللحظة الأولى فى تاريخ دعوته ، أنه متوكل على الله وحده ، فى جرأة لم يتخللها شىء من المداهنة والالتواء ، بل أعلن هذا فى صـــورة من التحدى لقومه ، حتى لا يداخلهم شك فى أن ثقته فى الله كبيرة ، ومن هذه الثقة يستمد القوة التى هى زاده فى كفاحه ونضاله :

« واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه : يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم

وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون.»
(٧١ : يونس)

« ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون » .
(٢٩ — ٣٠ : هود)

وحين تحرج الموقف بين نوح وقومه ، ولاحت فى الجو نذر المعركة الحاسمة ، التى تأبى الا ابتلاع نوح ودعوته وأتباعه ، لجأ الى الله وحده ، لأن ثقته العميقة فيه دفعته اليه ليأخذ بيده ،ويضفى عليه من نصره وتأييده .

« وقالوا : لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين . قال رب ان قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحــا ونجنى ومن معى من المؤمنين . » ١١٦ — ١١٨ : الشعراء .

« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه انى مغلوب فانتصر » . (٩ ، ١٠ : القمر)

أما الأمل فلم يفارق قلب نوح لحظة واحدة .. هذا الأمل الذى كان مبعثه الثقة فى الله ، التى ارتكزت عليها عقيدته واطمأن اليها قلبه ، واستمرار نوح ألف سنة الا خمسين عاما يدعو قومه دون يأس أو تقهقر ، كان أجلى مظهر من مظاهر الأمل الكبير الذى أمده بالصبر والثبات وقوة العزيمة .

لم يذر نوح حيال قومه وسيلة من وسائل الاقناع الا سلكها ،

وكلما فشلت وسيلة أتبعها بغيرها ، حتى لايكون ثمة عذر للمعاندين والمتمردين ، وحتى لايدع منفذا لليأس الى عزيمته .

سلك وسيلة المنطق ، وسلك وسيلة الاشفاق ، وسلكوسيلة التهديد ، ولكن كل هذه الوسائل لم تستطـــع أن تؤثر فى قـــوم تجمدت أدمغتهم ، وتبلدت عقولهم وتحجرت قلوبهم .

ثم سلك أسلوب الاغراء ... الاغـــراء الذى يلين الصخر ، ويذيب الحديد ، ويروض الوحش ، ويجتذب الجماد .. !

((فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعـــل لكم جنات ويجعـــل لكم أنهارا .)) ١٠ــ١٣ : نوح

وفشل أسلوب الاغراء ، وكان فشله دليلا على أن الله قد ختم على قلوب القوم ، وعلى سمعهم ، وجعل على بصرهم غشاوة ، وأصبح واضحا أنه لم يعد هناك ذرة من الأمل فى هدايتهم ، وأن أية محاولة أخرى لن تكون الا تضياعا للوقت فى غير جدوى ،وبذلا للجهد فى غير فائدة .

كما أصبح واضحا أن حياة هؤلاء المعاندين ضرب من ضروب العبث ، ومن البلاهة أن نعتبر لحياتهم تقديرا الا اذا كان لحياة الجراثيم فوق الأرض تقدير .

هذا الادراك كان يسيطر على عقل نوح ، فاتجه الى الله أن يخلص المجتمع من هذه الجراثيم ، لا بدافع من اليأس ، وانما بدافع من فلسفة العقل الراجح ، فان بقاء الجراثيم يفرض عليه تضياع

الوقت فى كفاحها ، ومعنى هـــذا أن الفئة المؤمنة لن يكتب لهـــا استقرار ولا اطمئنـــان ، وأن الدعوة الفتية لن يؤسس لها وضع ولا كيـــان .

واستجاب الله لنوح رجاءه العادل ، وطهر المجتمع من هـــذه الجراثيم التى كانت أول شرذمة أعلنت العصيان والتمرد على الله ، ليكون فى افنائها أول مثل من أمثلة العظـــة والاعتبار للأجيـــال القادمة .. !

وقد يخيل للبعض أن نوحا حين دعا الله ألا يذر على الأرض أحدا من الكافرين ، كان اليأس هو الذى سيطر على نفسه ، وصاغ له هذه الدعوة التى تعتبر أقسى دعوة دعاها نبى على قومه .

ونحن نقول لهذا البعض :

ان نوحا لم يدع وسيلة ولم يدع أسلوبا لهداية قومه ، ولم يدع لحظة واحدة مـــن وقته دون اســـتغلالها فى جذبهم الى دعوته ، وتستطيع أن تستعرض هذه الآيات المعدودات لتعطيك صـــورة من صور المحاولات العديدة التى بذل فيها نوح كل ما أوتى من جهد، وليتأكد لديك أن اليـــأس لم يقدر له أن يعـــرف الطـــريق الى قلب نوح مرة واحدة .

((قال : رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم انى دعوتهم جهارا . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا)) .

(٥ ـــ ٩ : نوح)

ثم ان نوحا لم يدع على قومه هذه الدعوة القاسية الا بعد ان أعلنه الله تعالى — لحكمة اقتضاها — أنه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن ، وبذلك أيقن أن هـــذه الشرذمة لم تصبح الا جراثيم لا خير فى وجودها .

ان اليأس لم يكن ليعرف الطريق الى قلب نوح مرة واحدة ، وكيف يمكن لليـــأس أن يعرف الطريق الى قلب استطاع أن يثبت فى مجال الكفاح والنضال قرابة عشرة قرون ، وهى مدة اذا قيست بمدد الرسل ، اربت عليها ، ولو كان لليأس منفـــذ الى قلبـــه ، لمـــا كانت هذه المدة الطويلة التى ينهار امامها أصلب القلوب .

أما أعصاب نوح فليست فى حاجـــة الى دليل على انهـــا كانت من فولاذ ، والذى لبث عشرة قرون تقريبـــا يدعو الى الله قـــوما كأنما خلقوا لتصوغ عقولهم العصيان والتمرد والعناد ، لا تحتاج أعصابه الى دليل على قوتها .

كان نوح حريصا على مزج أسلوبه بالهدوء فى كل مناقشاته ، أما قومه فقد كانوا يبتكرون فى مناقشاتهم ألوان العنت والاستفزاز والاستخفاف ، ولكنهم لم يقدر لهم ان يثيروا اعصاب نوح ولا أن ينالوا من هدوئه :

« قالوا يا نوح قد جادلتنـــا فأكثرت جدالنـــا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » .

« قال : انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجـــزين . ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم، هو ربكم واليه ترجعون . » ٣٢ — ٣٤ : هود

ويتمادى القوم فى استفزاز نوح واتباعه والاستخفاف بهم ، وقذفهم بأخس ألوان البذاءة ، ويستمر نوح فى هدوئه واتزانه وضبط أعصابه ، لأنه كان يهدف الى الخير للانسانيــة والبشرية ، وليس الى اثارة المعارك والمنازعات .

« فقال الملأ من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ».

(٢٧ ، ٢٨ : هود)

كان فى بعض مواقف قوم نوح معه تحرش به وبأتباعه ، ولولا أن أعصاب نوح كانت من فولاذ ، لحدثت معارك دموية أزهقت فيها الأرواح والأنفس ، وحسبك موقفان من هذه المواقف :

أما أحدهما فحين هدده قومه بالرجم والتخلص منه ، فقابل تهديدهم ووعيدهم بالانصراف عنهم الى الله وحده :

« قالوا لئن لم تنتــه يا نوح لتكونن من المجرمين . قال رب ان قومى كذبون . فافتـــح بينى وبينهم فتحـــا ونجنى ومن معى من المؤمنين » .

(١١٦ ــ ١١٨ : الشعراء)

وأما الموقف الآخر : فحين جلس نوح يصنع السفينـــة ، فى عزلة عن الناس ، ولكن القوم لم يتعودوا أن يتركوا نوحا فى هدوء ، فأخذوا يمرون عليه ليمطروه وابلا من السخرية ، وثبتت أعصابه أمام هذه السخرية لتمر العاصفة بسلام ، وليواصل هو عمله الذى سيحدد المعركة الحاسمة الفاصلة .

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . »

❊ ❊ ❊

ويجب ألا ننسى أن نوحا كان يواجه قوما بلغوا من الشراسة والفظاظة والسلاطة والحماقة ، ما لم يبلغه قوم قبلهم أو بعدهم ، وقد أشار كتاب الله عز وجل الى قوم عاد وقوم ثمـــود ، الذين بلغوا من الطغيان فى مواجهة رســـولين من رسل الله ، هما هود وصالح ، أقصى درجات الطغيان والعناد ، ومع ذلك فقد ســـجل القرآن أن قوم نوح كانوا أظلم وأطغى :

« وانه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح انهم كانوا هم أظلم وأطغى » . (٥٠ ــ ٥٢ : النجم)

ان نوحا استطاع أن يضبط أعصابه قرابة عشرة قرون ،كانت نضالا بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، ولم تستطع أى قوى للشر والضلال أن تثير هذه الأعصاب ، لأنها كانت أعصابا من فولاذ، لاتثيرها أقسى العواصف ولا أعنف الزلازل .



ظروف الدعوة

ان لطاقة الاحتمال صلة وثيقة بظروف الدعوة ، وحال أعدائها واتباعها معا ، ولا يمكننا أن نقدر هذه الطاقة ، ولا أن نقف على حقيقتها ، الا اذا المنا بظروف دعوة الرسول ، وبمدى ما كان يسيطر على عقول القوم من عناد وتمرد ، وما كان يقع على الأتباع من تنكيل واضطهاد

ونحن نستطيع أن نكيف ظروف دعوة نوح قبل كل شيء ؛ من زاوية بارزة لها أهميتها ، فالمشهور أن دعوة نوح لم يسبقها غير نبوة شيث وادريس فى القول الراجح ، ولكن علينا أن نفهم أن هاتين النبوتين محدودتان وغير مطبوعتين بطابع الرسالة ، ولم تواجها مجتمعا .

فهما نبوتان اشبه بمهمة وعظية اقليمية ، ينشر خلالها النبى الوانا من الحكمة والفلسفة والموعظة الحسنة ، دون أن يكون لهما فى المجتمع كيان أو منهاج ، ودون أن يكون لهما أيضا أثر يذكر فى المجتمع الذى عاشتا فيه .

وليس ادل على هذا من أن القرآن الكريم ، لم يهتم بشيث مطلقا ، كما لم يهتم بادريس الا فى موضعين اثنين ، وفى معرض الثناء الاجمالى على اشخاص الرسل والانبياء :

« واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا » ٥٦ ، ٥٧ : مريم

« واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين » . ٨٥ ، ٨٦ : الانبياء

فاجأ نوح القوم بدعوة جديدة على أفكارهم وعقولهم ، وجديدة على حياتهم ومجتمعهم ، جديدة عليهم فى كل شىء ، لم يصلهم من التاريخ ما يساعدهم على مناقشة دعوة جديدة لم يكونوا متهيئين لها ، ولم يكن للدعوات فى نظرهم ماض يمكن أن أن يلتمسوا منه العظة والعبرة ، وحياتهم البدائية المتعمقة فى الوثنية ، المغمورة فى الأوهام والأباطيل ، جعلت لهم من الأصنام التى لا تنفع ولا تضر محط تفكيرهم ، والغاية التى لا يتعداها .

كل هذا جعل الظروف التى تحيط بدعوة نوح ظروفا شاذة فريدة فى نوعها ، لانها أول دعوة واجهت مجتمعا خالى الذهن الا من طعامه وشرابه وصنمه .

كان هذا المجتمع يتعشق الصنم لأن حقيقته المجهولة ، وأسراره الغامضة ، جعلتاه فى غنى عن اجهاد الذهن والتفكير ، ولذلك استنكر دعوة نوح لأنه بشر يعاشرهم ويخالطهم ، وليس مخلوقا غريبا يواجهون دعوته بما تكيفه أهواؤهم ، التى يفضحها مخلوق من بنى جنسهم ، يساكنهم ديارهم ، ويفهم تقاليدهم وعاداتهم :

« أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تتقون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك .. »

٦٣ ، ٦٤ : الاعراف

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ... »

٢٧ : هود

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لانزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . »

٢٤ : المؤمنون

ومما جعل لدعوة نوح ظروفا خاصة شاذة ، انه لم يسبق دعوته دعوات بالمعنى الصحيح ، حتى يمكنه أن يتلمس لهم العظة والاعتبار ، والرسول عادة انما يمسك باحدى يديه الحجة التى تعتمد على المنطق ، ويمسك باليد الاخرى أمثلة من التاريخ تسند حجته وتؤيدها ، أما نوح فلم يكن يملك غير الحجة وحدها ، لخلو التاريخ قبله من أمثلة للعظة والاعتبار ، بل ان قضيته كانت أول مثل سجله التاريخ للعظة والاعتبار فى حياة دعوات الرسل صلوات الله عليهم :

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية ... »

٢٧ : الفرقان

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » . (١٤ ، ١٥ : العنكبوت)

ونستطيع أن نكيف ظروف دعوة نوح من زاوية اخرى لها

أهميتها ، فقوم نوح ضربوا الرقم القياسى فى التمرد والعصيان والعناد ، والعقاب الذى وقع عليهم كان أقسى عقاب عرفه التاريخ فى دعوات الأنبياء ، ولم يكن الا جزاء وفاقا لأخلاقهم .

كان طوفانا أغرقهم جميعا لأنهم كما قال القرآن : **كانوا قوم سوء فاغرقناهم اجمعين** ، وهذا تعبير بلاغى موجز من كتاب الله لا يحتاج الى جدل ، وماذا يهمنا ان كان الطوفان عاما شمل الكرة الارضية كلها ، او خاصا شمل البقعة التى يسكنها قوم نوح ؟ لأن المهم ان هؤلاء المعاندين قد غرقوا جميعا ليمثلوا العظة والعبرة للأجيال القادمة .

وقد يجرنا المنطق الأعرج الى الدخول فى مناقشة اخرى . فسواء أكان الطوفان عاما أو خاصا ، لابد أن هناك اطفالا لحقهم الهلاك ولا ذنب لهم ، وهذا يجافى عدالة الله ، والحاقا بهذا المنطق الأعرج يمكننا أن نقول : ان احداث الزلازل والبراكين التى تبتلع الألوف كبارا وصغارا تجافى عدالة الخالق أيضا ، وحاشا ..

ويحاول بعض المتعمقين أن يبتكر الوانا من الأفكار السقيمة فقد حرم الله — على حد زعمه — قوم نوح التناسل حتى كبر الاطفال ثم أصابهم بالطوفان ، وما الى ذلك مما يضحك ، ونحن فى غنى عن هذا كله ، لأن الطوفان كان اصلاحا ، والاصلاح لا تقف فى طريقه العواطف أو غيرها ، لاسيما وقد ثبت فى علم الله أن هؤلاء الأطفال لن يكونوا الا صورة من آبائهم وأجدادهم ، الذين قال عنهم نوح : انك ان تذرهم يضلوا عبادهم ولا يلدوا الا فاجرا كفارا .

ولم يكن مجافاة لعدالة الله أن امر صاحب موسى بقتل الغلام الصغير ، خشية ان يرهق أبويه المؤمنين طغيانا وكفرا . !

ولم تكن محنـــة نوح فى ابنه ـــ فحسب ـــ بل كانت أيضا فى زوجه التى خانته ، وقد أشار القرآن الى هذه الخيانة ممثلة فيها وفى زوج نبى الله لوط :

((ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين)) . (١٠ : التحريم)

ونحن نقف عند حد اللفظ القرآنى ، فلا نبحث عن ماهية هذه الخيانة ، وعلى أية صورة كانت ، فوصمة الخيانة تكفى ، وهى أنكر جريمة بعد الشرك بالله ، وكل ما هو مطلوب منا ان نتدبر امتحان نوح عليه السلام فى أقرب الناس اليه ، هـــذا الامتحان القاسى المرير على النفس ، لم يقلل من قيمة نوح كواحد من أولى العزم من الرسل .

ان الطوفان ـــ كما قلت ـــ كان جزاء وفاقا لقوم نوح الذين عاشوا مغمورين فى العصيان والتمرد والعناد ، كان نوح يقول لهم: اعبدوا الله .. فيردون عليه : لئن لم تنته لتكونن من المرجومين ، وما أجمل ما صور القرآن عنادهم :

((وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهـــم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .))

٧ : نوح

أما الفئة المؤمنة من أتباع نوح فقد ذاقت الامرين من تمـــرد قومه وجبروتهم ، كانوا يرون ايمانهم سبة لحقت دعوة نوح ، وحجة كافية لرفضهم الدعوة التى اتبعها الأرذلون ، كانت الفئة المؤمنة

فى نظرهم شيئا تافها يتعففون حتى عن مجرد ذكرها ، وهذا اللون أبلغ الوان الأذى ، فالأذى المادى بجانبه لا يساوى شيئا ، وقد لاقت الفئة المؤمنة منه الكثير فى زمن ليس باليسير ، ولولا أن الله أمدها بالثبات والصبر ، لما لبثت قرونا عدة أمام أذى هؤلاء الذين وهبوا لحياتهم ابتكار الوان الأذى !!.

كانت الفئة المؤمنة قليلة معدودة ، لان أذى القوم كان أقسى من أن يتحداه بايمانه كائنا من كان ، وكانت قلتها ــ برغم طول مدة الدعوة ــ دليلا على ظلم القوم وطغيانهم ، اللذين كانا مثلا فى العنف والقسوة :

« وانه اهلك عادا الأولى . وثمود فما ابقى . وقوم نوح من قبل ، انهم كانوا هم اظلم واطغى . »

٥٠ ــ ٥٢ : النجم

* * *

النتائج

كانت المدة التى لبثتها دعوة نوح اكبر مدة عرفها تاريخ دعوات الرسل ، وليس من الفقه ان نقيس الاثر للدعوات بمددها ، ودعوة نوح كانت أول دعوة واجهت مجتمعا ، ولم يسبق للدعوات ماض قبلها حتى يتلمس منه العظة والاعتبار ، ولذلك استهلك عناد القوم المدة كلها ، ولم يستجب لهـا الا القليل الذى شغل ـ فحسب ـ جزءا من سفينة نوح .

والأثر الذى تركته دعوة نوح لم يكن ملموسا كما ينبغى ، لانه كان بمثابة المثل العليا ، تؤخذ منها العظة ، وتتلمس منها القدوة ، وتبقى الدعوة بعد ذلك نموذجا للدعوات الحية القادمة .

ان دعوة نوح كانت المثل الاول للعظة والعبرة : فيما يتصل بالعقاب الذى أوقعه الله على الطغاة ، ولذلك اهتم القرآن بهذا الأثر من آثار دعوة نوح كثيرا :

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم » ـ « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح » ـ « فانجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » .

ان المجتمع الذى مثله قوم نوح ، تمادى فى التمرد والعصيان

حتى أثبت انه غير صالح للحياة فى دنيا البشرية ، وجاء الطوفان الذى ابتلعه عن آخره جزاء وفاقا ، لتهيأ الأرض من جديد للحياة الآمنة الصالحة ، بمجتمع جديد مستقيم ، يكون النواة له الفئة المؤمنة التى نجت مع نوح .

ونوح — أول الرسل — لبث الف سنة الا خمسين عاما ، يدعو قومه فى غير تردد أو تقهقر ، ولا يأس أو تضجر ، ولبثت الفئـــة المؤمنة نفس المـــدة ، فى غـــير جزع أو وهن ، ولا فزع أو تملص ، وكما وهب الله لنوح الثقة وقوة العزيمة ، وهب لها الثبات وقوة التحمل ، وكما لقى نوح التمرد والصدود ، لقيت الفئة المؤمنة السخرية والهوان ، فصار نوح قدوة الأنبياء والرسل ومثلا يحتذى به قادة الدعوات الحية فى الثقة وقوة العزيمة ، وصارت الفئة المؤمنة كذلك قدوة للفئات المؤمنة ، ومثلا يحتذى به أصحاب العقائد الحية القوية ، فى الثبات وقوة التحمل .

ان اهتمام القرآن بقصة نوح له مغزاه ، فدعوته — كما قلت — هى أول الدعوات التى واجهت مجتمعا متكاملا ، ولذلك افرد القرآن سورة كاملة لقصة نوح هى سورة نوح ، وهنا يتطرق الى الأذهان سؤالان :

الأول : ان الله افرد سورا لغيره من الانبياء : سورة هود ، وسورة يونس ، وسورة يوسف ، وهؤلاء ليسوا من أولى العزم من الرسل ، بل أفرد لغير الأنبياء : سورة مريم ، وسورة لقمان .. وهذا صحيح ، الا أن افراد قصة نوح بسورة — بالاضافة الى بثها فى كثير من السور ، ملفت للنظر لأن السورة من أولها الى آخرها تناولت — فحسب — قصة نوح ، وعلى العكس فى السور الأخرى .

الثانى : لماذا افردت سورة لنوح وابراهيم ومحمد — صلوات

الله عليهم — من أولى العزم ، ولم تفرد سورة لموسى وعيسى وهما أيضا من أولى العزم ؟

ونحن نقول : بالنسبة لموسى ، فان قصته تكاد تكون قد عرضت فى كثير من سور القرآن الكريم ، فكانت فى غنى عن افراد سورة لها ، وبالنسبة لعيسى ، فان فترة رسالته قصيرة للغاية ، مما يجعلها ليست فى حاجة الى افراد سورة لها ..

والفئة المؤمنة فى زمن نوح اضطهدت اضطهادا مرا ، وكان أقسى ألوان هذا الاضطهاد امتهان قدرها ، والسخرية من كيانها ، ولولا أن الله أمدها بالثبات وقوة التحمل لاستهلكتها القرون التى لبثتها دعوة نوح وأفنتها عن آخرها .

وقوم نوح ضربوا رقما قياسيا فى البغى والعدوان ، وامتداد عهد الرسالة زاد قلوبهم قسوة وتحجرا ، ولولا أن الله أراد للطوفان أن يأخذهم اخذا ، لذاقت الانسانية من بغيهم وعدوانهم ما تضطرب ازاءه الجبال .

عاشت الفئتان معا فى نضال ، سلاح الأولى الثبات وقوة التحمل والثقة فى الله ، وسلاح الاخرى البغى والعدوان والثقة فى النفس ، وجاء الطوفان ليضع نهاية المعركة ، فظفرت الفئة المؤمنة الصابرة بالنصر والنجاة ، كما باءت الفئة الباغية بالخذلان والهلاك .

وكانت النتيجة عظة للبغاة الطاغين ، ومنارا للمؤمنين المضطهدين الصابرين ، واصبحت سنة الاجتماع فى كل زمن ، ان يهزم الله الباطل وينصر الحق ، مهما طال الوقت وتوالت الأيام ، وستظل هذه السنة خالدة الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، دون أن تجد لها تبديلا ولا تحويلا . !

* * *

٢ – خَلِيلُ اللّٰه

ابراهيم عليه السـلام

ابراهيم الخليل هو الرسول الثانى من أولى العزم بعد نوح ، وهو شخصية فذة استحقت هـذا الشرف ، واذا كان من أبرز مقومات الشرف الذى ناله أولو العزم من الرسل ، الكفاح والصبر فقد كافح ابراهيم كفاحا متواصلا لم يهدأ خلاله لحظة واحدة ، وصبر صبرا لا تقوى عليه الجبال الشوامخ .

ان الله تعالى اعده اعدادا لائقا بأولى العزم ، واهتم به اهتماما بالغا ليجلسه فى المكان اللائق به ، هيأه ليكون فى الدنيا اماما للناس يقتدون به ويهتدون بهديه ، واصطفاه من خلاصة الناس ليـكون جديرا بهذا الشرف ، واتخذه خليلا ليضفى عليه اجلالا لشخصه وتقديرا له :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال انى جاعلك للناس اماما ... »

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقـد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين . »

البقرة : ١٢٤ ، ١٣٠

« ومن أحسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا . » النساء : ١٢٥

ولقد منحه الله قوة الحجة ، فان حياة ابراهيم كلها كانت نضالا بينه وبين دعاة الشر ، والذى يتصفح كتاب الله حول قصته يؤمن ايمانا راسخا ، بأنه لم يغادر ميدان النضال الا الى لقاء الله يوم أن اختاره للقائه ، ولذلك منح قوة الحجة لتكون سلاحه ضد المعارضين والمعاندين ، ورفع بها درجات تكافىء نضاله وصبره وقوة عزيمته :

« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم . »

٨٣: الانعام

وابراهيم الخليل لم يكن شخصية عادية ككل الشخصيات ، بل ولم يكن رسولا عاديا ككل الرسل ، ولم ينل شرف الانتساب الى أولى العزم لمجرد أنه نبى رسول وحسب ، فقد كان أمة لها وضع وكيان ، لم يعرف الغرور السبيل الى نفسه ، لأنه كان على صلة وثيقة بالله ، ولذا استحق التقدير الذى اغدقه الله عليه فى الدنيا والآخرة :

« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين . »

(١٢٠ ــ ١٢٢ : النحل)

وهل هناك تقدير أعظم من أن يوجه الله رسوله بعد ذلك الى اتباع ملة ابراهيم :

١٢٣ : النحل

« ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . (١٢٣ : النحل)

كان ابراهيم من أولى العزم من الرسل ، لان الله اعــده واصطفاه لهذا الشرف ، وعاش حياته مكافحا مناضلا شجاعا فى الميدان ، يكافح ويناضل وحده كل قوى الشر من قومه ومن غير قومه ، فأثبت أنه جدير بهذا الشرف الذى لم يختص الله به غير صفوة الرسل .

ان ابراهيم شخصية فذة ، ونواحى العظمة فى هذه الشخصية الفذة لا يفى بتحليلها ودراستها جانب من هذا البحث الموجز ، واذا كنا قد اعتبرنا فى دراسة شخصية نوح ان الاتزان والصراحة والشجاعة وقوة العزيمة والعاطفة ، هى أبرز عناصر الشخصية القوية ، فان شخصية ابراهيم قد آستوعبت أمثال هذه العناصر استيعابا كاملا واضحا .

ولا يكاد يبرز عنصر الهدوء كثيرا فى شخصية ابراهيم ، اذ أن حياته كانت ثورة لا تعرف الهدوء ، ولكن هذه الثورة لم تحرم الاتزان الذى يدفع اليه قوة الحجة ، وهذا لم يمنع ان تكون لديه قيمة اصيلة من الهدوء ، مستقرة فى أعماقه ، وقد أبرز الله هذه القيمة من الهدوء لدى خليله ، فى كثير من الآيات :

« فمن تبعنى فانه منى . ومن عصانى فانك غفور رحيم »
٣٦ : ابراهيم

« ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » .
٤١ : ابراهيم

ولا يمكن أن ننسى حواره الهادىء مع أبيه آزر .. الا أن المجتمع الواسع النطاق الذى عاش فيه ابراهيم ، كان لا يوائمه الا الثورة على تقاليده العتيقة الجهلاء . وابراهيم لم يشعلهـا ثورة جوفاء تسمع لها جعجعة ولا ترى لها طحنا ، بل كانت ثورة منظمة على أساس من الاتزان وقوة الحجة :

((وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ؟ . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن ، ان كنتم تعلمون ؟ . الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .))

٨٠ — ٨٢ : الانعام

وتلمس عنصر الاتزان بارزا واضحا فى مناقشته أباه ، الاتزان الذى لم يدفع اليه — فحسب — وشيجة الرحم ، ولا أدب الحديث مع من تربطه به أوثق الروابط واقدسها ، وانما دفع اليه أيضا قوة الحجة التى تعتمد عليها كل مناقشاته :

((اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، ان الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت انى أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .))

٤٢ — ٤٥ : مريم

كان يغلب على أسلوب نوح الهدوء ، الا أن أعماقه كانت تحتوى ثورة عارمة ، سجلها القرآن :

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا — أى واحدا — **انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا »** .

٢٦ ، ٢٧ : نوح

لانه لم يكن هناك داع الى غير الهدوء ، ولم يغلب على اسلوب ابراهيم الهدوء ، لان اضطراب المجتمع الذى عاش فيه لم يكن يصلح له الهدوء ، ولكنه لم يحرم الاتزان المحوط باطار من الوقار ، وكان هدوء نوح قائما على المسالمة ، كما كان اتزان ابراهيم قائما على الاعتزاز وقوة الحجة .

وكان عنصر الصراحة فى ابراهيم عنصرا مهما فى تكوين شخصيته ، هذا التكوين الذى طبع على الصراحة بدافع الثقة فى ربه وفى قوة حجته ، وبدافع الغيرة على المجتمع الأعمى الذى يتخبط وسط أمواج من الوثنية البلهاء ، والجهالة الحمقاء ، والتقاليد الخرقاء .

وابراهيم فى صراحته لا يطلق العنان للسانه وكفى ، بل انه ليزن كل كلمة يلفظ بها ، حتى تخرج مؤيدة بالمنطق وقوة الحجة ، انه كالخطيب المتدفق المعتز بمنطقه وقوة حجته ، لايجنح الى الالتواء ولا الى المواربة :

« وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، اليه ترجعون . »

١٦ — ١٧ : العنكبوت

وتبلغ الصراحة القمة ، حين لا نستطيع اقدس العواطف ان تعوقها أو تقف فى طريقها ، فقد خاطب ابراهيم أباه ، وكان صريحا معه كل الصراحة ، الأن اعتزازه بعقيدته وبمهمته كان أكبر من اعتزازه بعاطفة الرحم وقدسيتها :

« واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون . الا الذى فطرنى فانه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون . »

٢٦ــ ٢٨ الزخرف

أما عنصر الشجاعة فى شخصية ابراهيم فقد كان عنصرا قويا فعالا ، انه لم يعرف الهدوء فى أسلوبه ، ولا الالتواء أو التقهقر فى مناقشته عقيدة قومه ، بل اعلن رأيه فيها شجاعا غير وجل ولا هياب ، وهو يعلم علم اليقين أن موضوع العقيدة دقيق حساس ، يتصل بعزة القوم وكرامتهم ، ولا يبعد ان يثير ثائرتهم وهو لا يملك من القوة غير الثقة فى الله عز وجل :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هــذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . »

٥١ ــ ٥٦ : الانبياء

« اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون ؟. أو ينفعونكم أو يضرون ؟ . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم

ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى الا رب العالمين . »

٧٠ ــ ٧٧ : الشعراء

ان الشجاعة لم تخن ابراهيم حتى فى أعصب اللحظات التى تستثير غضبة الحليم ، وتستنفد صبر الجبال ، ويستهان فيهـــا بالدماء والأرواح ، فقد حطم آلهة القوم متحديا عزتهم وجبروتهم وبطشـهم ، فاستشاط غضبهم ، وتفجرت ينابيع الشر من اعينهم .

فى هذه اللحظات العصيبة التى تضطرم خلالها الأعصاب ، وتهتز أوتار الغضب ، لم تخن ابراهيم شجاعته ، فأخذ يندد بآلهة القوم ، ويسفه أحلامهم ، ويحط من تفــكيرهم ، وللانســـان أن يقف حائرا أمام هذا اللون من شجاعة ابراهيم ، فقد كانت الظروف تحتم عليه ان يتوارى أو يستكين حتى فى هذه اللحظات العصيبة فحسب ، ولكنه لم يتوار ولم يستكن ، لان اعتداده بقوة حجته وثقته فى ربه ، دفعاه الى الشجاعة فى مجال لا يغامر فيه اشجع الشجعان :

« فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون ؟ . مالكم لا تنطقون ؟ . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا اليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . »

(٩١ ــ ٩٦ : الصافات)

ويكاد يحفظ العامة حديث الصحيحين الذى ذكر ان ابراهيم كذب ثلاث كذبات : حين دعى الى الحفاوة بالآلهة فى يوم عيد فاعتذر بأنه سقيم ، وحين حطم الأصنام والقى التهمة على كبيرهم ، وحين سئل عن زوجه أمام احد الجبابرة فأخبر عنها بأنها اخته ، ويخيل لهؤلاء العامة أن ما جاء بالحديث قد يخدش شجاعة ابراهيم

ونحن نسمو به عن أرذل صفة ، ونحن مع تسليمنا بالحديث ، لا يمكن الا أن نسلم بأن ما حدث من أبراهيم فى مسألتى الأصنام كان لونا من التهكم ، وفى مسألة زوجه وسيلة للتخلص من المأزق ، ويرى بعض العلماء أنه لا يفرض علينا التسليم بحديث آحاد ليس متواترا ، اذ أن عصمة رسول — كابراهيم — من الكذب ، أحق من عصمة رواة حديث الآحاد من الخطأ فى النقل .

ونحن نرى مع البعض الآخر تأويل الحديث ، ونرى مما لا بأس به ، أن نعرض لهذه المسألة فى ايجاز :

الحديث الذى اخرج فى الصحاح والسنن عن أبى هريرة عن رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — هو :

« لم يكذب ابراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله تعالى : قوله : انى سقيم .. وقوله : بل فعله كبيرهم هذا .. وقوله فى سارة : هى أختى »

يعقب ابن كثير فى تفسيره بقوله :

« وليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا ولما ، وانما اطلق الكذب على هذا تجوزا ، وانما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء فى الحديث : ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » .

ولكنا نقول : ما كان أغنى ابن كثير عن الاستشهاد بحديث : « ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » فهذا الحديث الذى رواه ابن عدى والبيهقى عن عمران بن حصين « حديث ضعفه رجال الحديث ، وحسبنا ان يكون ما الجأ ابراهيم الا مقصد شرعى دينى .

ان هناك حديثا متفقا على صحته ، وقد رواه أيضا الامام أحمد وأبو داود والترمذى عن أم كلثوم بنت عقبة : « ليس الكذاب بالذى يصلح بين الناس فينمى خيرا ويقول خيرا » ونعتقد أن لجوء ابراهيم الى المعاريض يجد مبرره ، كانت مهمته اكبر اضعافا مضاعفة من السعى للصلح بين الناس .

وقوة العزيمة ضربت رقما قياسيا فى شخصية ابراهيم ، وحين يدفع التحدى الى قوة العزيمة تبلغ القمة ، وحين يتحدى الفرد كل قوى الشر بمفرده ، ومن غير حول ولا قوة الا الثقة فى تأييد الله فحسب ، تكون قوة العزيمة فيه قد فاقت كل أساليب التقدير والاكبار .

وابراهيم ندد بعقلية القوم ، وسخر من آلهتهم التى نحتوها من الصخر ، ولما تأكد من أن المنطق وقوة الحجة لا يصلحان لتحويل وجهة القوم ، عزم على أن يضرب لهم مثلا ماديا على فساد عقليتهم وهوان آلهتهم ، فجعل فأسه بيديه ، وانهال تحطيما وتكسيرا على الآلهة ، وهو يفهم تماما ما يترتب على هذا الفعل من أذى سيلحقه ولا يرحمه :

« قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وانا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم يرجعون . »

الانبياء : ٥٥ ــ ٥٨

وحاول ابراهيم ان يقنع أباه بالتحرر من العقيدة الوثنية الآسنة ، والانضمام الى الفئة المؤمنة ، حيث العقيدة السليمة

الكريمة التى تسمو بالعقول ، فلم تستطع اساليب ابراهيم المؤيدة بالمنطق وقوة الحجة ان تنتشل أباه من هوة الضلال التى يتخبط فيها ، فقرر اعتزال أبيه والتبرؤ منه ، واعتزال الابن أباه والتبرؤ منه ، مضحيا بوشيجة الرحم التى تربطه به ، ليس بالأمر الهين ... ولكن حين يعزم ويهم ، لا تستطيع اقوى العواطف أن تثنى من عزمه ، ولا أن تثبط من همته :

« قال سلام عليكم ، سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا . »

٤٧ ، ٤٨ : مريم

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرا منه ، ان ابراهيم لأواه حليم . »

١١٤ : التوبة

وعنصر العاطفة فى ابراهيم بلغ اقصى ما تصل اليه العاطفة من سمو ، وقلت من قبل : أن عناصر الشخصية الخمسة فى أولى العزم من الرسل — صلوات الله عليهم — وثيقة الصلة ، فالاتزان فى حاجة الى الصراحة حتى لا يكون ضعفا ،والصراحة فى حاجة الى الشجاعة حتى تكون قوة ، والشجاعة فى حاجة الى قوة العزيمة حتى يكون لها اثر ، وهذه العناصر الأربعة فى حاجة معا الى العاطفة لتنظمها ، وتجعل من الشخصية انسانا له قلب واحساس وشعور .

وابراهيم كان رسولا قويا تحدى كل قوى الطغيان والبغى

التى تركزت فى المعاندين من قومه ومن غير قومه ، ولكنه كان مع هذا انسانا ذا عـــاطفة رقيقة تجيش بقلبه ، وكان أبرز نزعات العاطفة فى ابراهيم حين ناقش أباه العقيدة، فوجد منه متعصبا للوثنية ، عاضا عليها بنواجذه ، ولا يكاد يتم نصيحته له حتى يهدده بالرجم ويستحثه هجرانه ، ويستجيب ابراهيم للهجران ولســان حاله يقول : ((**سلام عليك ، سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا**)) والعاطفة هى التى كانت تتحرك فى قلب ابراهيم فيدعو الله أن يغفر لأبيه ويقيه عذابه ، حتى لا يتعذب قلبه بعذابه .

والذين يتعجبون من نوح لأن قلبه حن الى ابنه الخارج عن طاعة الله ، يتعجبون أيضا من ابراهيم لاستغفاره لابيه ، وهو يعلم أنه من الضالين ، ونحن نقول لهؤلاء المتعجبين : ان كلا من نوح وابراهيم لم يرتفع فوق مرتبة البشر ، والعاطفـــة فى البشر طبيعـــة متأصلة فيـــه ، وهى لم تزد عن مجرد احساس فياض بالرحمة ، اذا تحرك لم يستطع المرء أن يكبح جماحه ، وهل يلام انسان لأن له احساسا نبيلا بين جوانحه ؟.

كانت العاطفة فى ابراهيم تتجه ايضا نحو بنيه ــ فلذات أكباده ، فقد رجا الله ان يجنبهم عبادة الاصنام حتى لا يكونوا وقودا للنار ، كما جمعهم وأوصاهم ان يحرصوا على أن يموتوا مسلمين ، حتى لا يحرموا الخير فى دنياهم وأخراهم ، اى أنه كان حريصا على أبعاد الشر عنهم أولا ، وجلب الخير اليهم ثانيا ، وهذا آخر ما يمكن ان تفعله العاطفة الأبوية نحو فلذات الأكباد :

((**واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى ان نعبد الأصنام .**))

ابراهيم : ٣٥

« ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى : ان الله قد اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » .

١٣٢ : البقرة

وكما كانت العاطفة فى ابراهيم تتجه نحو بنيه ، كانت ايضا تتجه نحو ذريته التى تربطه بها وشيجة الدم ، فحين ترك أسرته فى صحراء لا زرع فيها ولا ماء ، ملبيا أمر الله تعالى ، اتجه اليه ان يضعها فى رعايته ، ويسوق اليها جماعات من الناس تأنس بها ، وتطمئن اليها :

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غــير ذى ذرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

٣٧ : ابراهيم

ان عاطفة ابراهيم نحــو ذريته امتزج بها دمه وشــعوره واحساسه ، فهو يحب لها الرفعة والخير حبا بمثابة الأمنية الغالية التى تجيش بنفسه ، وتهيم بها خواطره .

حين يمنحه الله الامامة يهتف لسانه بالرجاء اليه ان يهبها لذريته من بعده ، وحين يتجه الى الله فى دعواته يهتف قلبه بأمنيته أن يجعل الله من ذريته أمة مسلمة لها كيانها ، وحين يسأل الله أن يجعله مقيم الصلاة يلحق بنفسه ذريته :

« واذا بتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال انى جاعلك للناس اماما ، قال ومن ذريتى .. » ١٢٤ : البقرة

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة .. »

١٢٨ : البقرة

ولم تكن العاطفة فى ابراهيم قاصرة على ابيه وفلذات الأكباد وذريته فحسب ، وانما كانت عاطفة شاملة لبنى الانسان ، فقلبه لا يحتمل ان يقع العذاب على أحد ، حتى ولو كان ممن يستحق العذاب .. والذى بلغت قسوته على الأصنام حداً لا يطاق كان يجب ان يقابل قسوته عليها قسوة على اتباعها ، ولكنه فى مجال التنديد بها ، يسأل الله أن يغفر لأتباعها :

« رب انهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم »

٣٦ : ابراهيم

وتأتى الملائكة لتنزل العذاب بقوم لوط ، وتهتز أوتار قلب ابراهيم لكلمة العذاب ، فيجادل ويناقش لعله يظفر بشىء من رحمة الله للقوم ، ولا يثنيه عن جدله ومناقشته الا نهى الله اياه .

والانسان يقف حائرا امام سمو العاطفة فى قلب ابراهيم ، هذا القلب الرقيق الذى تمتزج رحمته بكل مشاعره واحساساته وجوارحه ، ولا يطيق القسوة ولا العذاب ، حتى لمن تقتضى العدالة توقيع القسوة والعذاب عليهم :

« فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . ان ابراهيم لحليم أواه منيب . يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك ، انهم آتيهم عذاب غير مردود » .

٧٤ — ٧٦ : هود

كان لعناصر الشخصية القوية فى ابراهيم مكان مرموق ، كان متزنا اتزانا أضفى على شخصيته الوقار ، وصريحا صراحة أضفت

عليها القوة ، وشجاعا شجـاعة أضفت عليها الاعتزاز ، وقوى العزيمة قوة أضفت عليها التقدير والاكبار ، وممتلئا عاطفة أضفت عليها الرفعة والنبل .

وفوق هذه العناصر الخمسة ، برزت فى شخصيته قوة الحجة ، وقوة الحجة جانب من جوانب العظمة التى لها قدرها فى تـكوين الشخصية ، ولم تكن قوة الحجة فى ابراهيم ضربا من الذكاء المفرط فحسب ، وانما كانت أثرا للتعمق فى فهم العقيدة والايمان بهـا والاطمئنان اليها ، وامتيازا لابراهيم لأن الله وهب له قوة الحجة ليرفعه بها درجات .

ومواقف ابراهيم كلها فى جداله ونضاله برزت فيها قوة الحجة ، وأهم هذه المواقف موقفان جديران بالتقدير ، أولهما ، كان صراعا بينه وبين نفسه ، لا لاقناعها ، ولكن لتأكيد العقيـدة السليمة فى ذهنه ، وقد صور القرآن هذا الموقف فى محاورة بين ابراهيم ونفسه حين رأى اختلاف أحجام الكواكب ، وعدم ثبوتها على حالة واحدة ، فهى تظهر تارة وتختفى أخرى ، وخرج من هذه المحاورة بنتيجة تؤكد أن هذه الكواكب مخلوقات مسخرة لبنى الانسان ، فكيف يستسيغ العقل عبادتها :

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ؟ فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ؟ فلما أفل قال لئن يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السـموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . »

٧٥ ـــ ٧٩ : الانعام

وهنا نتوقف قليلا لتحقيق موقف ابراهيم فى هذا المجال : أهو موقف نظر وبحث أم موقف مناظرة ومجادلة مع القوم المعارضين ؟.

ان رأى ابن كثير فى تفسيره ، ووافقه الشهر ستانى فى « الملل والنحل » هو أن ابراهيم ــ عليه السلام ــ كان فى هذا المقام مناظرا لقومه ، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والاصنام ، فبين فى المقام الأول مع ابيه خطأهم فى عبادة الاصنام الارضية التى هى على صورة الملائكة السماوية ، وبين لهم فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل ، وهى الكواكب السيارة ..

ثم يقول ابن كثير : وكيف يجوز ان يكون ابراهيم ناظر فى هذا المقام ، وهو الذى قال الله فى حقه : ((**ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين**)) .. وقال : ((**ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين . شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم .**))

وما يقوله ابن كثير هو الحق ، اذ أن قبل هذه الآيات مباشرة : ((**وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين**)) ثم جاء العطف بالفاء : ((**فلما جن عليه الليل**)) .

والعطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب ، بلا أدنى فاصل زمنى يذكر .. أى ان اليقين كان الدافع الى المناظرة :

يقول الشهيد سيد قطب فى « ظلال القرآن » حول هذه الآية : **وكذلك نرى ابراهيم .. الآية :**

« يمثل هذه الفطرة السليمة ، وهذه البصيرة المفتوحة ــ وعلى

هذا النحو من انكار الباطل وتزييف الزائف ــ نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ، ونطلعه على الأسرار الكامنة فى صميم الكون ، ونكشف له عن الآيات المبثوثة فى صحائف الوجود لينتقل من مجــرد الانكار على عبادة الآلهة الى اليقين الصحيح بالله الحق .. وهذا هو الطريق الفطرى اليسير الهين ، وعى لا يسير وراء التقليد ، ونظر يكشف الزيف ، وبصر يلحظ ما فى الكون من عجائب ، ويتبع المشاهد فتنطق له بسرها المفتوح لأصحاب البصائر ، المحجوب عن الغافلين الساهين .. »

وكما كانت الآية السابقة : « **وكذلك نرى ابراهيم** » مؤيدة أن المقام مقام مناظرة لا مقام نظر .. كذلك كان ختام السياق :

« قال يا قوم انى برىء من المشركين . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

وأما الموقف الآخر ، فكان صراعا بينه وبين نمرود بن كنعان ملك بابل ، الذى تزعم عصابة المعارضة ، لأن فى عقيدة ابراهيم الجديدة مزاحمة لألوهيته ، وافسادا للرعية التى تخضع لطغيانه وجبروته ، والقرآن صور المحاورة التى جرت بين ابراهيم ونمرود ، وكيف استطاع ابراهيم بقوة الحجــة التى ألهمها أن يفحم خصمه ويعجزه ، ويلزمه الحجة :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

٢٥٨ : البقرة

كما برزت فى شخصية ابراهيم أيضا دقة الاحساس ، ودقة الاحساس جانب ممتاز من جوانب العظمة فى تكوين الشخصية ، وهو كفيل بأن يصون الشخصية من المثالب ، ويسمو بها عما يخدش شرفها .

ودقة الاحساس فى ابراهيم ، كانت تجعله فى صراع بينه وبين نفسه ، ليجعلها نفسا خالصة من شوائب الرياء والغرور ، فهو حين يبنى البيت مع ابنه اسماعيل ، يسأل الله أن يتقبل منهما عملهما خالصا لوجه الله بعيدا عن الرياء ، وهو يدعو الله من أعماق قلبه أن يهب له الحكمة ، وأن يلحقه بالصالحين حتى لا يتمكن الغرور من نفسه :

((واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا ، انك أنت السميع العليم .))

١٢٧ : البقرة

((رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين .))

٨٣ ، ٨٤ : الشعراء

ودقة الاحساس كانت تجعله دائما فى صراع بينه وبين قلبه ، ليجعل منه قلبا سليما خالصا من شوائب الغدر والحقد والبغضاء ، كان يسأل الله الخير لمن تبعه ، والخير أيضا لمن عصاه ، فيطلب لهم المغفرة ، لأنه كان يحمل بين جنبيه قلبا نقيا لا يحمل حقدا ولا بغضا ، وكانت أعز أمنية له أن يكون ذا قلب سليم نقى ، ينفعه فى يوم لا ينفع فيه المال ولا البنون :

« ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم . »

٨٧ ــ ٨٩ : الشعراء

ودقة الاحساس كانت تجعله فى حياة واضحة لا غموض فيها ، ظاهره كباطنه ، لان الله يعلم كل ما يحيط بالمرء فى سره واعلانه ، ولذلك كان عقله الباطن يفيض بهذا المعنى العظيم ، لتستقر نفسه ، وتطمئن خواطره ، ويزداد ايمانا ويقينا :

« ربنا انك تعــلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

٣٨ : ابراهيم

ودقة الاحساس كانت بمثابة الحارس له من الزلل ، وقصـــة ضيوفه من الملائكة الذين جاءوا ليبشروه فى كبره بغلام وليد ، صورت لنا دقة احساسه ، فقد أخذته الدهشة لهذا الامر الخارق لسنن الكون ، ولم تكن الدهشة محاولة للشك فى قدرة الله ــ وانما كانت هزة الفرح بهذه القدرة لأنها تأييد لدعوته ــ وحين حذرته الملائكة أن يكون يائسا ، دفعته دقة احساسه الى استدراك زلة لســـانه بالتنديد باليأس واستنكاره :

« قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون . »

(٥٤ ــ ٥٦ : الحجر)

* * *

طـاقة الاحتمال

ان مقاييس طاقة الاحتمال فى أولى العزم من الرسل ، ترجع الى مدى ما يتمتع به الرسول من الثقة فى الله ، وما يتمتع به قلبه من الثبات وأعصابه من الاتزان .

وقلت عند دراسة نوح : ان طاقة الاحتمال تبلغ القمة ، اذا منح الرسول ثقة عميقة فى الله لا يرتقى اليها ذرة من الشك ، وقلبا ثابتا مليئا بالامل لا يصل اليه همسة من اليأس ، وأعصابا من حديد لا تثيرها أقسى العواصف ولا أعنف الزلازل .

والذى لا ريب فيه — ان ابراهيم الخليل قد تمتع بأكبر قسط ممكن من هذه القيم العظيمة ، وعاش وهو مغمور فيها بروحه وقلبه وقد ملكت عليه كل احساساته ومشاعره .

ولقد كانت مظاهر الثقة فى الله واضحة فى شخصيته ، منذ أن عرف الله الى أن اختاره للقائه ، وأجلى هذه المظاهر ، تحطيمه آلهة القوم متحديا شعورهم وجبروتهم ، غير عابىء بتهديدهم أو وعيدهم ، وهيىء لالقائه فى النار المتوهجة ، دون ان ينبس ببنت شفة ، ودون أن يبدو على وجهه ملامح الجزع والقلق ، لأن ثقته فى الله جعلته موقنا بأنه لن يتخلى عنه ، ولذلك — كما ورد — حين فاجأه جبريل فى اللحظات العصيبة التى ألقى خلالها فى النار ، سأله : ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا ..! قال : سل ربك ..! قال : علمه بحالى يغنى عن سؤالى .. !!

« قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا : يا نار كونى بردا وســلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلنــاهم الأخسرين . »

٦٨ — ٧٠ : الانبياء

وفى ساعة بلغ الحرج فيها القمة ، واشتد الصراع فيها بين ابراهيم وقومه ، استطاع ان يحدد موقفه من قومه وآلهتهم ، فأعلن على ملأ أنه يضع كل ثقته فى الله وحده ، متحديا جبروتهم وطغيانهم :

« قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى الا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . »

٧٥ — ٨٢ : الشعراء

ولقد كان لابراهيم قلب أثبت من الجبال ، لم يقو اليأس على أن يحتل مقدار ذرة منه ، قام وحده يدعو الى نبذ الاوثان وهــو يعلم أن الدنيا بأسرها تقف ضده ، وقام وحده يحطم آلهة القوم وهو يعلم أن هذه المحاولة ضرب من المغامرة ، وعمد الى اسكان بعض من ذريته فى صحراء مقفرة ، كانت وقتئذ بقعة مجهولة من الارض لا يحظى برؤيتها الا الرياح العابرة ، وهو يعلم ان الامل فى تعميرها ضرب من السراب ، قام بهذا كله دون أن يعرف اليأس الى قلبه سبيلا ، لأن الأمل القوى كان يملك عليه نفسه ، ويحتل كل جزىء من قلبه .

ولقد هاجر ابراهيم من مسقط رأسه ، بوادى الكوفة الى حران ثم منها الى فلسطين ، ولذا قيل : لكل نبى هجرة ، ولابراهيم

هجرتان ، وتنقل من مكان الى مكان ، ولم يكن اليأس مبعث عجرته وتنقلاته ، وانما كان الأمل فى اتساع رقعة دعوته ، وفتح جبهات أخرى ليرفرف عليها علم التوحيد :

« فآمن له لوط ، وقال : انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم . »

(٢٦ : العنكبوت)

ولقد منح ابراهيم ايضا أعصابا من فولاذ ، استطاعت ان تواجه اعنف العواصف التى تخللت نضاله ، وهناك مواقف عصيبة اعترضت حيـــاة ابراهيم ، اثبتت ان أعصابه أقوى من أن ترتج أو تهتز ، وحسبنا موقفان أوضح من الشمس فى رائعة النهار ، اولهما حين القى فى النار ، وثانيهما حين كلف ذبح فلذة كبده ، وفى كليهما ثبتت أعصاب ابرآهيم ، وكان برهان ثباتها صبرا ورضا واستسلاما .

وقد احتلت الانفعالات النفسية فى أساليب ابراهيم مكانا مرموقا ولم يكن مبعثها استفزاز الاعصاب ، وانما كان انطلاقا لا حدود له فى شجاعته وجرأته ، ولم تكن تصلح غير هذه الاساليب مع قـــوم استعبدهم جبـــابرتهم فألهوهم ، واستعبدتهم حماقاتهم وجهـــالاتهم فعبدوا الأصنام من دون الله ، ولم تكن عقليتهم مستعدة لأن تفقته أو تناقش ، ولا أن تخضع لعقل أو منطق .

ان طاقة الاحتمال فى ابراهيم بلغت القمة ، كان يواجه عقلية مستبدة تعتمد على الطغيان والغرور والجبروت ، ولا تعرف غير لغة البطش والفتك ، وكانت قوته تتركز فى منطقه ورصانة حجته ، ويقينه وثقته فى ربه .

* * *



ظـروف الدعــوة

ان لرسالة ابراهيم ظروفا خاصة أيضا ، فقد ظهرت فى وقت متحجر العقل متبلد الذهن ، وفى بيئة انغمست فى العبودية الوثنية الى آذانها ، وليس هناك من المصادر الوثيقة ما نستشف منها ما يكيف عقلية هذه البيئة سوى كتاب الله ، الذى لم يدع ناحية من نواحى هذه العقلية دون أن يكشفها ، وليس فسادها فى حاجة الى توضيح ، ونحن نراها تعبد الكواكب تارة ، وتعكف على عبـادة اصنام من الحجارة تارة اخرى ، وتارة ثالثة تخضع لعبادة الجبابرة من علية القوم .

وقد اخذ ابراهيم على عاتقه مكافحة هذه العقلية فى اسلوب تهكمى على فسادها ، فهو يردد النظر الى الشمس والقمر والنجوم ساخرا من اختلاف احجـامها وتعددها ـ بينما ينبغى للآلهة أن تتحرر من التعدد واختلاف الاشكال ، وهو يحطم الاصنام ويلقى التهمة على كبيرها ، ثم يسخر من هذه الآلهة التى لا تملك الدفاع عن نفسها ، وهو يناقش أحد الجبابرة الذين ادعوا الألوهية ، ويتحداه ان كان الها حقا أن يأتى بالشمس من المغرب مغيرا بذلك سنة الله ، الذى يأتى بها من المشرق ، ولم يسعه الا أن يبوء بالهزيمة .

ولم يكن تحجر هذه العقلية فى حاجة أيضا الى توضيح ، فهى لم تبد أى استعداد حتى لمناقشة العقيدة الجديدة التى جاء بهـا

ابراهيم ، ولا لاعطائه فرصة ليشرحها فى جو من السكينة والهدوء ، ويظهر أن هذه العقلية كانت تسيطر سيطرة تامة على الأغلبية الساحقة ، فاضطر ابراهيم الى الوقوف فى الميدان وحيدا ، وأقرب المقربين اليه — عمه آزر الذى كان ألد أعداء عقيدته ، وبينما كان ابراهيم يدعوه الى العقيدة السليمة بالتى هى احسن ، اذ به لا يخاطبه الا بأسلوب التهديد والوعيد : لئن لم تنته يا ابراهيم لتكونن من المرجومين .. !

وقد بلغت كتائب المعاندين لرسالة ابراهيم مبلغا كبيرا من العناد والجبروت ، فقد ناقش عقيدة القوم وندد بها على أساس من المنطق الذى يقره العقل ، ولم يجدوا ما يجيبونه به الا الدفاع مجرد الدفاع عنها ، لأنها تراث الآباء والأجداد ، والاسراف فى أساليب التهديد والوعيد ، والواقع ان عقدة معاندة الدعوات فى كل مرحلة انما كانت تنحصر فى الحقد ، لأن شرف المهمة بالنسبة للرسول تبعث على الحقد ، لان كلا — ان لم يطمع فى الرسالة — فعلى الأقل كان يتمنى أن ينالها ، ومادام حرمها لأن غيره سبقه بها ، فلا يملك الا الحقد ، الذى يصوغه فى قالب من العناد والمعارضة والمقاومة .

والعجيب أن هناك بضع رسالات سبقت رسالة ابراهيم ، وتركت أحداثا جسيمة ظلت متواترة لا تقبل الشك ، واقربها رسالة نوح التى تركت أضخم الاحداث ، وهو الطوفان الذى ابتلع المعاندين من قومه ، ثم رسالة هود التى أهلك الله معارضيها — قوم عاد — بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .. ! ثم رسالة صالح التى اهلك الله معارضيها — قوم ثمود — بالصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ..!!.

هذه الرسالات الثلاث التى تقاربت مع رسالة ابراهيم فى المسافات والازمنة ، لم تستطع أحداثها الجسام أن توقظ قوم ابراهيم أو تفتح قلوبهم ، لأن عنادهم المركز جثم على صدورهم ، وعقد أجفانهم ، وطمس على قلوبهم ، دفعهم الى التمادى فى الغى والجبروت والاستخفاف ..!!.

وفى الوقت الذى بلغ فيه اعداء رسالة ابراهيم القمة من العناد والجبروت ، لم يكد يظهر من يقف بجانب ابراهيم يؤيده ويؤازره ، والقرآن نفسه لم يشر الى أتباعه فى ميادين النضال التى خاض غمارها وحيدا ، وقد أشار الى أتباع ابراهيم فى آية واحدة ، وفى معرض الجراة والاقدام حين قالوا لقومهم : انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده .. وليست الآية كافية لاعطائنا صورة وافية عنهم ، نفهم منها مؤازرتهم لابراهيم فى كفاحه ونضاله .

ويمكننا بعد هذا العرض الموجز أن نكيف ظروف رسالة ابراهيم التى واجهت عقلية متحجرة سيطر عليها الجهل والحقد والعناد سيطرة تامة ، حتى لم تستطع الاحداث الضخام ان تهزها أو تؤثر فيها ، كما واجهت كتائب عديدة احتضنت العداء السافر ، المتجاوب مع الكبرياء والغرور ، ولم يقف بجانبها الا ابراهيم فى سياج من الايمان والثبات والثقة فى الله ، وأمكن بعد ذلك أن يكون ذا طاقة من الاحتمال تواجه ما تعجز عن مواجهته الجبال الشم ..!.

* * *

النتـــــائج

كانت النتائج لرسالة ابراهيم عدة معان حية ، أصبحت أمثلة بارزة فى دنيا الكفاح والنضال ، والتى لم تكن تعرف قبل ابراهيم ، وحسبه بعد ذلك أن يكون أول مؤسس لها ، وأول حامل لمشاعلها .

ولعل أبرز هذه المعانى فى حياته ـــ الكفاح العملى ـــ فان الرسل الذين سبقوه لم يتعد كفاحهم مجال الـــكلام يرسلونه فى أساليب تمتزج بالمنطق تارة رغبة الاقناع ، وتمتزج بالتذكرة تارة ثانية رغبة العظمة ، وتمتزج بالانذار تارة ثالثة رغبـــة التخويف والزجر ، أما ابراهيم فحاول أن يصل عن منطق اللسان الى اقناع الكفار المعاندين فلم يفلح ، واضطر الى أن يلجأ الى منطق اليد ، ليجعلهم أمام دليل واضح على فساد عقليتهم لا يحتاج الى مناقشة ، لقد حمل فأسه وهوى بها على أصنامهم وبالأحرى على آلهتهم ، ولم يدعها الا قطعا صغيرة من الحجارة المبعثرة هنا وهناك ، ولم يستثن كبير الأصنام الا ليوهمهم أنه المرتكب جريمة التحطيم ، ويدفعهم الى مناقشته ، فيظهر عجزه فى التزام الصمت ، كما يظهر فساد عقليتهم التى حملتهم على عبادة أصنام عاجزة عن الكلام ، ولم يكن اتهام ابراهيم كبير الأصنام لونا من الكذب يخفى وراءه الضعف والجبن ، والا كان أحرى به ألا يقدم على عمل جرىء يحتاج الى شجـــاعة مضاعفة ، بل كان القاء التهمة على كبير الأصنام لونا من السخرية والتهكم فحسب .

ومن هذه المعانى الحية فى حياة ابراهيم ـــ الفدائية ـــ فهو

حين أقدم على تحطيم آلهة القوم انما كان يعلم المصير الذى ينتظره ، ولكن فدائيته كانت من نوع ممتاز جعلته لا يلقى بالا لما ينتظره من مصير .

ومن هذه المعانى أيضا — التضحية — وحين يبذل المرء فى ميدان الكفاح ماله فلا يثير كبير اهتمام ، لأنه من الممكن ان يعوض المال ، وحين يبذل دمه ، فلا يثير كبير اهتمام أيضا ، لان لـذة الشهادة والتشوق الى حياة الشهداء الخالدة ، تجعلان دماءه هينة فى سبيلها ، أما حين يطلب من المرء أن يبذل دماء فلذة كبده بيده ، فان التضحية عندئذ تبلغ القمة من التقدير ، ولقد طلب من ابراهيم أن يريق دم فلذة كبده ليضرب المثل الأعلى فى التضحية ، فاستجاب بقلب ملؤه الصبر والرضا ، والتسليم والثبات ، لولا أن تدارك الله الطفل الذبيح فى اللحظات الأخـيرة وفداه بكبش عظيم ، وسجل التاريخ لابراهيم صفحة ناصعة ، وصارت تضحيته مثلا أعلى ، تتضاءل ازاءها تضحيات الناس بأموالهم ودمائهم .

ومن هذه المعانى — حرية الرأى — التى برزت فى حيـاة ابراهيم ، فقد أعلن رأيه فى الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر ، قبل أن يكلف الرسالة ، وحين كلفها نمت حرية الرأى فى نفسه مع نمو عقليته ، ولم تكن حرية رأيه مبنية على المنطق فحسب ، بل كانت الجراة من أهم دعائمها ، وحين تعتمد حرية الرأى على الجراة تصبح لونا من التحدى ، وهو أبلغ ألوان حرية الرأى .

كان لابراهيم موقف مع ربه ، ناقش فيه قضية كانت تشغل يومئذ أكبر حيز من أذهان الناس ، واستغلها الملحـدون لترويج مذاهبهم ، انها قضية البعث بعد الموت ، ولم يدفع ابراهيم الى هذه المناقشة الشك ، لأنه كان فى درجة من اليقين تجعله فوق مراتب

الشك ، وانما دفعه اليها حرية الرأى التى ملكت عليه نفسه ، ليتزود بأكبر قسط من الاطمئنان ، يهب له القوة فى ميدان المحاججة والنضال ، ولقد قدر الله فى ابراهيم حرية رأيه ، فواجهه بدليل مادى قاطع ، وضرب بذلك — عز وجل — مثلا لتقدير حريات الرأى وتقديسها .

ولبعض المتعنتين تأويلات تخرج بألفاظ القرآن عن مدلولها ، وتختفى وراءها مادية الدليل ، وابراهيم انما طلب دليلا ماديا من ربه ، وهذه التأويلات لا حاجة بنا الى مناقشتها لانها أهون من أن تناقش :

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك — أى اضممهن — **ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم . »**
(٢٦٠ : البقرة)

ومن نتائج رسالة ابراهيم — التوحيد — فالذين سبقوه من اخوانه لم يثيروا هذه القضية ، لأن بذور الشرك لم تكن غرست بعد فى المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها ، فقد كانت المجتمعات فى عهد نوح تنكر الله وتعكف على عبادة الاوثان ، وفى عهدى هود وصالح كانت تقاوم عبادة الله بدافع من الغباء والعناد ، أما فى عهد ابراهيم فقد عرفت المجتمعات الشرك ، واشركت مع الله الاوثان والكواكب وما اليها ، وكانت مهمة ابراهيم الاولى أن صاح فيها صيحة التوحيد من أعماق قلبه :

« واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون . الا الذى فطرنى فانه سيهدين » ٢٦ ، ٢٧ : الزخرف

ولرسالة ابراهيم من النتائج ما كان حدثا ضخما ، حسب له فيما بعد ألف حساب ، فقد قام — يعاونه ابنه اسماعيل — يشيدان البيت الحرام ، الذى أصبح فيما بعد قبلة للناس وأمنا ، ولقد لعب هذا البيت أدوارا قيمة فى كثير من الاحداث السياسية ، وحسبه من التقدير أنه ظل فى الجاهلية مأوى الخائفين يستنشقون بين أرجائه أنسمة الأمن ، ولم يزل — وسيظل الى أن يشاء الله — قبلة المسلمين يرتشفون داخله كؤوس الروحانية العذبة الصافية .!

ولقد أثمر بناء البيت الحرام أيجاد أمة عربية مناضلة ، احتلت فيما بعد مكانة مرموقة فى التاريخ ، وزاد مكانتها شرفا ، حين أصبحت مهبط الوحى المحمدى ، ومشرق شمس الاسلام الحنيف !!.

* * *

٢ - كليمُ الله



موسى عليه السلام

ان لشخصية موسى مكانا مرموقا فى التاريخ ، كما أن لرسالته مركزا ممتازا بين صفحات التاريخ ايضا ، وموسى هو الرسول الوحيد الذى شغلت قصة رسالته التاريخ قبيل ولادته الى ما بعد وفاته ، وشغلت مساحة كبيرة من كتاب الله .

ومن بين ثنايا هذه القصة نلمس دلائل واضحة على ان الله قد أعد موسى اعدادا لائقا بأولى العزم من الرسل ، واذا كان من أهم مقاييس هذا الشرف مشقة المهمة التى تقوم على عاتق الرسول ، فان مهمة موسى قد بلغت الرقم القياسى فى المشقة ، وقطعت اشواطا بعيدة فى تيار الصعاب .

ولد موسى فى ظروف بلغ الاضطراب والقلق والفزع خلالها حدا يعجز القلم عن وصفه ، وقد سبقت هذه الظروف رسالته بعشرات السنين ، وعاشت وسطها الى أن أهلك الله فرعون وقومه .

وكان على موسى أن يواجه جبارا عنيدا كفرعون ، الذى كان يستعبد الرعية ويستخفها ، ويذلها ويسخرها كما تسخر الماشية وأحط ، والذى كان يمنح نفسه ألوهية لا تنازع ولا يجادل فيها .

كما كان على موسى أن ينهض نحو التحرر بشعب كبنى اسرائيل

قد غرق فى العبودية الى آذانه ، حتى أصبحت سنة من سنن حياته ، وامتزجت الذلة بدمائه حتى أصبحت غذاء روحيا له لا يستغنى عنه .

وكان على موسى بعدئذ أن يروض هذا الشعب الذى لم تكد أغلال عبوديته تتحطم ، حتى انقلب الى متمرد عنيد ، وعربيد متعنت ومستخف جحود . !

ولك بعد هذا أن تكيف المهمة التى القيت على عاتق موسى ، لتدرك ان الله لم يمنحه شرف الانتساب الى أولى العزم من الرسل الا وهو جدير به وكفء له .

ان الله تعالى تولى رعاية موسى منذ ولادته ، رعاه حين وضع فى التابوت ، وألقى فى البحر ليوصله تياره الى حيث يقيم فرعون ، ورعاه حين نشىء فى بيت عدوه فرعون وألقى محبته فى قلب زوجه ، ورعاه حين شب فصنعه على عينه ليكون أهلا للمهمة الشاقة التى تنتظره :

« ولقد مننا عليك مرة أخرى . اذ أوحينا الى أمك ما يوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى » .

٣٧ ــ ٣٩ : طه

ولما بلغ موسى أشده ، واستوت رجولته ، أضفى الله على شخصه فلسفة وعلما ، وهيأه لمنصب الرسالة واصطفاه بها ، ومنح روحه القوة التى تكافىء اعباء مهمته الشاقة :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين . »

١٤٤ : الاعراف

ويكاد موسى يكون الرسول الوحيد الذى كان له امتياز خاص فى تكليفه الرسالة ، فالله تعالى كلفه اياها وهو قريب منه على جبل الطور ، حين كان هائما بغنمه فى سيناء ، ولهذا الامتياز أهميته ، لانه كان ضروريا للمهمة الشاقة التى كلفها الله موسى ، لشد عزيمته وتقوية روحه ، وصقل همته وتركيز المعانى الحية فى نفسه :

« واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا • وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا • »

٥١ ـــ ٥٢ : مريم

لقد استوعبت حياة موسى منذ ولادته حتى لقى ربه ، العديد من القصص ، والعديد من الأحداث الجسام ، كل قصة من القصص او كل حدث من الأحداث ، توافر له مقومات القصة الفنية ، والسبب فى ذلك ليس ـــ فحسب ـــ اهمية هذه القصص وتلك الاحداث ، بل لأن القرآن الكريم قد عنى عناية خاصة بالتفاصيل ، وبرغم عنايته بهذه التفاصيل لم يتخل عن الايجاز المعجز ، وهذا منهجه دائما ، حتى برغم التكرار فى اكثر من صورة وفى اكثر من سورة •

والسبب فى أن حياة موسى ورسالته قد غطت مساحة كبرى من كتاب الله عز وجل ، هو أن موسى واجه ملكا فرعونيا بأسره ، ودولة كبيرة برمتها ـــ هى مصر ـــ التى كانت خاضعة خضـــوعا كاملا لسيطرة فرعون وألوهيته وطغيانه ، وكذلك واجه موسى قومه انفسهم ، واجه بنى اسرائيل الذين كانوا كالجراد المنتشر ، بينما نرى من سبقه من الانبياء ، والرسل ، لم يواجهوا الا اقوامهم المحدودى العدد ، فلم يكن العمران قد تطور بعد ولم يواجهوا دولا برمتها ••

* * *

قــوة الشخصـيّة

ان العناصر الاساسية التى يجب ان تتوافر فى شخصية رسول من أولى العزم من الرسل خمسة : الاتزان ، والصراحة ، والشجاعة والعزيمة القوية ، والعاطفة الرقيقة .

وشخصية موسى تتمتع بجوانب العظمة هذه ، وبدرجة ممتازة ولا ريب فى هذا ، وان كفاح موسى الطويل المرير ، وسط هـــالة من جبروت الأعداء وصلفهم ، وعنت الاتباع وتمردهم ، لاكبر دليل على ذلك .

وأول هذه العناصر الاتزان ، وهو المادة التى تمتزج بالشخصية لتبرهن على قوتها وعظمة نفسها ، ولقد كان أول لقاء لموسى مع فرعون الذى تأله فى الأرض ، فأثبت من الهدوء والاتزان والثبات ما جعله جديرا بالتقدير والاكبار ، واليك موقفين من مواقف عديدة يعتبران نموذجا لاتزان موسى وهدوئه وثباته :

« قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولاينسى . » طه : ٤٩ ـــ ٥٢

« فلما جاءهم بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى

وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ، انه لا يفلح الظالمون » .
٣٦ ، ٣٧ : القصص

وثانى هذه العناصر الصراحة ، وهى لابد منها للدعوات ، حتى تعرض على المسامع واضحة لا غموض فيها ، ولا التواء يشوبها . ولا يمكن للدعوات الحية أن تتركز معانيها فى الأذهان ، الا اذا كانت صريحة فى أساليبها .

وقد برز عنصر الصراحة فى موسى بشكل واضح ، وفى أدق المواقف التى تهتز لها مشاعر المرء لم تخن موسى صراحته ، فقد قربه الله اليه ليكلفه أعباء الرسالة الى فرعون وقومه ، وكان عليه أن يسمع ويطيع دون مناقشة لأن الله فى غنى عنها ولكن صراحته هى التى دفعته الى أن يستفسر من ربه عن الحقائق التى تجيش فى صدره :

« واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ، ألا يتقون . قال رب انى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . »
١٠ ــ ١٤ : الشعراء

وحين أنجى الله بنى اسرائيل ، وطلب منهم ان يدخلوا الارض المقدسة ، بادروه باللؤم والالتواء ، وأعلنوا التمرد والاستعصاء ، وكانت حجتهم أن فيها قوما جبارين ، ولم ير موسى بدا من مصارحة ربه بهذا الواقع :

« قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها ، فاذهب أنت

وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون . قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . »

المائدة : ٢٤ ، ٢٥

وفى أعصب المواقف التى كانت وجها لوجه أمام فرعون ، لم تفلت الصراحة من لسان موسى ، وجاءت صراحته غاية فى القوة وغاية فى الاتزان ، وغاية فى الايجاز :

« وقال موسى يا فرعون انى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل » الاعراف : ١٠٤ ، ١٠٥

وثالث هذه العناصر الشجاعة ، وهى حلقة مهمة فى كيان الشخصية ، ودعامة قوية يقوم عليها بناء الدعوات ، وشجاعة موسى لا تحتاج الى نقاش ، لقد واجه فرعون الاله الذى كان من أبرز صفاته الشراهة فى سفك الدماء ، والتمادى فى احتقار الرعايا ، واجهه موسى بدعوة تهدم كيانه من اساسه ، وتنتزع من بين أضلاعه الألوهية التى يستخف بها قومه ويستعبدهم ، وما كان لموسى الذى تربى وليدا فى بيت فرعون أن يقف هذا الموقف لو لم يكن على أكبر جانب من الشجاعة .

وموسى منحه الله كل ألوان الشجاعة ، منحه شجاعة جسمانية ، فقد ركز المصرى الذى كان يصارع العبرانى فأفقده حياته ، وقد ظهرت شجاعته الجسمانية حين استطاع أن يفسح طريقا وسط الزحام للمرأتين اللتين كانتا ترعيان فى سقى ماشيتهما .

ومنحه شجاعة أدبية ، والاعتراف بالأخطاء من أرقى ألوان

الشجاعة الأدبية ، فقد قتل العبرانى من غير قصد ، واعترف بهذا الخطأ وأنه من عمل الشيطان .. وتعاهد مع صاحبه — فى رحلتهما — على أن يصبر مهما رأى من افعال صاحبه ، وفى أول حادثة لم يطق الصبر بل ناقش صاحبه ، وحين ذكره بعهده اعتذر عن الخطأ .

ومنح الله موسى شجاعة قلبية تفوق كل شجاعة ، وحسبنا دليلا مواجهته فرعون ، ونحن نعلم من هو فرعون ، الشره فى سفك الدماء ، الجشع فى ازهاق الأرواح ، ولكن شجاعة موسى كانت أكبر من أن تتقهقر أمام جبروت فرعون وغطرسته ووحشيته ، واليك هذا الحوار الموجز بين موسى وبين عدوه الأكبر ، لتلمس من بين عبارته أى لون من الشجاعة القلبية كان يتمتع بها موسى : موسى :

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا » .

١٠١ ، ١٠٢ : الاسراء

وفى اخطر المواقف التى تستفز أثبت الأعصاب ، والتى كانت تحديا بين معجزات موسى وسحر شيعة فرعون ، وهنا برزت شجاعة موسى لتواجه السحرة بالحقيقة ، وتحولهم الى الايمان به ، والكفر بفرعون وألوهية فرعون :

« قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى . فتولى

فرعون فجمع كيده ثم أتى . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى . »

٥٩ ــ ٦١ : طه

وحين أثبت قوم موسى أنهم مطبوعون على التمرد والاستعصاء ، وأن جذور الذلة والعبودية أرسخ من أن تقتلعها الحرية التى منحوها اثر هلاك فرعون ، دفعت موسى شجاعته الى مواجهتهم بالحقيقة التى تجعلهم يعرفون أقدار أنفسهم ، وانها أتفه من أن يؤبه لها :

« وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا ، فان الله لغنى حميــد » .

٨ : ابراهيم

والعزيمة القوية رابعة العناصر ، وهى بمثابة المحرك للآلة ، أو الروح للجسد ، وهى التى تصون الشخصية من مخازى التخاذل والتقهقر ، وما كان ليقدر للدعوات ذرة من النجاح ، اذا خلت نفوس دعاتها من العزيمة الصارمة القوية .

وعزيمة موسى بلغت القمة من القوة ، ولم يصبها فى وقت من الاوقات ذرة من الضعف أو الخور ، وقد تجلت على حقيقتها حين ذهب لمناجاة ربه ، وعاد ليجد قومه عاكفين على عبــادة عجل صنعه لهم السامرى من حليهم ، فعزم على أن يعطى السامرى وقومه درسا ماديا قاسيا لن ينسوه أبدا ، وعمد الى العجل فأحرقه ونسفه فى اليم نسفا ، وهو درس بليغ ما كان لموسى أن يعطيه لهؤلاء الضالين لو لم يكن يتمتع بعزيمة من أقوى العزائم :

« قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، وانظــر

الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا . انما الهكم الله الذى لا اله الا هو ، وسع كل شىء علما . »

طه : ٩٧ ، ٩٨

والعاطفة خامسة العاصر ، وهى المادة التى تجعل من الشخصية انسانا ذا قلب يفيض رحمة واحساسا ، وموسى الذى منح صلابة وصرامة وقوة ، عاش على جانب كبير من العاطفة النبيلة ، وقد قتل يوما ما بغير قصد آدميا ، وبرغم أن المصرى القتيل كان معتديا أثيما الا أن العاطفة الانسانية تحركت بين أضلاع موسى فبادر بالندم والتوبة ، وأدرك أن قتل النفس مما يتجافى والانسانية ، وظل بقية حياته قلقا يطارده شبح هذه المأساة التى كانت من عمل الشيطان .

ولقد ظهرت العاطفة النبيلة واضحة فى شخصية موسى ، حين اختار وفدا يمثل بنى اسرائيل بلغ سبعين رجلا ، ليقدم فروض الولاء لله ، والعجيب أن هذا الوفد تحركت فيه سجية العنت والتمرد والحماقة ، فى الوقت الذى تقدم الى الله معلنا التوبة عن بنى اسرائيل الذين عبدوا العجل ، وكان أن أصاب الله الوفد بالرجفة .

وهنا خشى موسى أن يواصل الله انزال العذاب ببنى اسرائيل ، فتحرك أحاسيس العاطفة الانسانية بين جوانحه ، فراح يتضرع الى الله أن يرفع مقته وغضبه ، وأن يتجلى عليهم بعفوه ورحمته :

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما اخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم واياى ، اتهلكنا بما فعل السفهاء

منا ، ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وانت خير الغافرين)) .

١٥٥ : الاعراف

ان هناك عناصر أخرى تعتبر جوانب عظمة فى شخصية موسى ويمكن ضمها الى عناصر العظمة الخمسة ، التى شارك فيها اخوانه من أولى العزم .

ومن هذه العناصر : الشهامة ، وللشهامة تقديرها لأنها بمثابة التاج الذى تتوج به الشخصية العظيمة .

وموسى اوتى وافرا من الشهامة ، وحسبنا موقفان ، تجلت فيهما شهامته التى كانت تخبىء تحت طياتها مروءة وعفة ورجولة .

فهو حين سمع استغاثة العبرانى من المصرى ، لم يتوان لحظة فى نصرته ، ولا يقلل من قيمة شهامته هذه ، أن المظلوم كان من شيعته ، وربما كانت نصرة موسى لـــه بدافع العاطفة لا بدافع الشهامة ، ولكن لا يفوتنا أن الهدف كان مناهضة ظلم وكفى .

ويجب الا يفوتنا أن موسى يومئذ لم يكن قد أرسل بعد ، وكان مهيئا لحمل رسالة ستجابه أول ما تجابه الظلم فى أقصى مراحله ، وهو ظلم المصريين لبنى اسرائيل ، وانتصاره للمظلوم فى هذه الحادثة انما كان تجربة له ، ومقياسا لشهامته ، وهو المهيأ لكفاح مرير ونضال شاق .

وقد انتصرت شهامة موسى ، ولكن ظرفا آخر قد خانه ، وهو ـــ القضاء على العدو ـــ فهو لم يكن يقصد غير تخليص المظلوم

من قبضته ، ولولا جبروت الظالم وطغيانه لما وكزه موسى وقضى عليه ، ولذلك استشعر الندم وسأل الله العفو والمغفرة .

والله سر فيما حدث ، فقد صنع لموسى السبب الذى حمله على الخروج من مصر الى مدين ، ليمكث هناك سنوات يهيأ خلالها للمهمة الشاقة التى كانت تنتظره :

((ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين . قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفرله ، انه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين))

القصص : ١٥ ــ ١٧

والقصة لم تنته بعد ..

واعجب ما فيها ، ما جاء بعد ذلك ، فقد فوجىء موسى عليه السلام ، بنفس الاسرائيلى الذى استصرخه بالأمس على القبطى فقتله ، يستصرخه مرة أخرى من قبطى آخر ، ولكن موسى أنبه وقد اتضح له أنه مشاغب ، وفى نفس الوقت هم موسى بأن يبطش بالمصرى ليخلص الاسرائيلى منه ، فتوهم الاسرائيلى أن موسى يريد البطش به هو ، لذا صاح فى وجه موسى متهما اياه بالجبروت فى الأرض ا وهذا هو المعدن الاسرائيلى على حقيقته :

((فأصبح فى المدينة خائفا ، يترقب ، فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى : انك لغوى مبين . فلما أراد

أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » . (١٨ ، ١٩ : القصص)

اما الموقف الآخر ، فهو موقف موسى عليه السلام ، من المرأتين فى مدين ، تلكما اللتان رآهما فى موقف العجز عن سقى غنمهما بسبب تزاحم الرعاء ــ جمع راع ــ على الماء ، وهو موقف يستثير همة الهمام ، وشجاعة الشهم ، وتقدم موسى لمساعدتهما حتى سقتا الغنم ، وموقف موسى اتسم بالقوة والأمانة معا فى هذه القصة ، القوة فى تمكنه من سقى غنم المرأتين برغم تزاحم الرعاء ، والأمانة ــ أمانة السلوك ــ وهو فى طريقه معهما الى أبيهما ، ويتجلى ذلك فى قولهما لأبيهما : « **ان خير من استأجرت القوى الأمين** »

« **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء** ــ أن ينصرفوا ــ **وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال : رب انى لما أنزلت الى من خير فقير** » .

٢٣ ، ٢٤ : القصص

هذان موقفان من مواقف الشهامة : أولهما جاء نتيجة لاستغاثة ضعيف بموسى ، والآخــر تلبية لواجب الشـــهامة ، فالمرأتان لم تستغيثا بموسى ، ولكن موسى هو الذى عرض عليهما مروءته ، وهو موقف أبلغ من سابقه ، والقرآن عرض القصة فى ايجاز ، لم يعن بالتصريح باسم المرأتين ، ولا باسم أبيهما ، ليلفت النظر الى المعنى العظيم الذى اتسم بشهامة موسى عليه السلام .

الا أن المفسرين لهم شغف بالتفاصيل ، قالوا : ان الدلو الذى

نزع به موسى كان يحتاج الى قوة أربعين رجلا ، وأن قرصا من الخبز نزل على موسى من السماء عندما جلس تحت الظل ، وقد ظل سبعة أيام جائعا ، وقد لصق بظهره بطنه . بينما يقول بعض المفسرين : يريد موسى أن يقول : انى فقير من الدنيا لاجل ما أنزلت الى من خير الدين ، ونجانى من الظالمين .

***

وكلمة تعقيب لابد منها :

فقد يقول قائل : لقد ذكر القرآن فى أكثر من موضع ما ارتسم على موسى من الخوف : « **فأصبح فى المدينة خائفا يترقب** » « **فخرج منها** ـ اى المدينة ـ **خائفا يترقب** » أليس هذا الخوف منافيا للشجاعة ؟.

ونحن نقول : ان خوف موسى كان لونا من الحذر لا أكثر ، والحذر مطلوب من المؤمن ، ولذلك أردف القرآن فى كل من الآيتين السابقتين بكلمة « خائفا » كلمة « يترقب » والترقب هو الحذر بنفسه . والخوف بمعنى الحذر لاينافى الشجاعة على الاطلاق ، أما الخوف الذى يتولد فى النفس عند المواجهة فى الحرب أو فى السلم فهو الخوف الذى ينافى الشجاعة ، وقد كان موسى فى كل مواقف المواجهة ـ ولاسيما موقفه فى مواجهة فرعون ـ شجاعا شجاعة مبعثها الايمان بالله والثقة المطلقة به سبحانه .

* * *

طـــاقة الاحتمال

سبق أن قلت : مقاييس طاقة الاحتمال بالنسبة لاصحـــاب الدعوات ، هو ثبات القلب ،واتزان الاعصـــاب ، والثقة العميقة بالله ، وان طاقة الاحتمال تبلغ قمتها من التقدير حين يمنح الرسول قلبا ثابتـــا لا يعرف اليأس ، وأعصابا من فولاذ لا تحركها أقسى العواصف ، وثقة عميقة بالله لا يرتقى اليها الشك .

والذى لا ريب فيه أن موسى قد أوتى حظا كبيرا من جوانب العظمة هذه ، والظروف التى أحاطت بدعوته ، ومظاهر الصـــبر والاحتمال التى حالفت تحركاته ، دليل واضح على هذا .

كان فرعون وقومه أفجر من عرف تاريخ البشرية من أعـــداء الدعوات والرسالات ، لأن تاريخ البشرية لم يعرف جبارا فاجرا كما عرف فرعون ، الذى لم يكتف بفرض ألوهيته على الرعايا ، وانما طالب بأن يبنى له صرح ليقاتل اله موسى .

وكان بنو اسرائيل أتباع موسى من طـــراز فريد فى العنت والتمرد والجحود ، وما أغدق الله من النعم الجليلة ، مثل ما أغدق على بنى اسرائيل ، ولكنهم لم يقابلوا هذه النعم الا بمزيج من العنت والتمرد والجحود .

وعشرات السنين التى قضاها موسى فى غير جزع أو يأس ـــ

بين أعداء بلغوا القمة من الفجور والطغيان ، وبين أتباع بلغوا القمة من التمرد والعصيان ، كفيلة بأن تجعل طاقة الاحتمال التى منحها فى اطار من الاجلال والتقدير ..

ان موسى المكافح المناضل ظل قبيل الرسالة سنوات يرعى قطيعا من الغنم فى بيداء لا حدود لها ، فاستطاع أن يتزود بقسط وافر من الأناة والصبر والاحتمال ، ودخل ميدان النضال بين الحق والباطل ، فلم يصب قلبه ذرة من الجزع أو اليأس ، مع أن كل الظروف التى أحاطت برسالته ، كانت كفيلة بأن تحول كل منابع الصبر والاحتمال الى براكين من الفزع والجزع واليأس .

أن بنى اسرائيل قوم موسى ضربوا رقما قياسيا فى التمرد والالتواء ، وكانت أحوالهم كلها مع موسى أمثلة ناطقة بالتنكر للمثل والقيم ، وظل موسى يروض أخلاقهم السنوات الطوال ، ولو لم يرزق موسى طاقة من الصبر ، وطاقة من الأمل لا حدود لهما ، ما كان فى استطاعته أن يلبث معهم ساعات معدودات ، ومع هذا لم يتخل موسى عنهم ، ولكن الله هو الذى وضع حدا لانحطاط أخلاقهم بأن كتب عليهم التيه فى الأرض أربعين سنة ، بعد أن برهن كل عضو من أعضائهم ، وكل شعرة فى أبدانهم ، على انهم غير جديرين بالحياة الكريمة فى دنيا الناس ..!!.

وأعلن فرعون وقومه على موسى سياسة البطش والبغى ، وكان أسلوبهم لا يحيد قيد شعرة عن التهديد والوعيد والغرور ، أما موسى فقد تذرع بالصبر ، واستهدف الثبات والثقة بالله عز وجل ، ومن هذا الحوار القرآنى الموجز يتبين لك ما لا يحتاج الى دليل :

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ، وانا فوقهم قاهرون * قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » .

(الأعراف : ١٢٧ — ١٢٩)

وموسى الذى لم يعرف اليأس طريقه الى قلبه أبدا ، كانت أعصابه من فولاذ حقا ، ولو قدر لغير موسى أن يتولى هداية أمثال فرعون وقومه فى جبروتهم وصلفهم وغرورهم ، وأن يتولى ترويض أمثال بنى اسرائيل فى تمردهم وعنتهم وجحودهم ، لفلت زمام أعصابه وتعرضت لانهيار لا يوصف ولا يحد ..!.

لقد واجه موسى فرعون المتأله برسالته ، ليلقى منه كل سخرية ، وكل استخفاف ، وكل تهديد ، فلم يزده كل هذا الا هدوءا واتزانا ، ولم يقابل عواصف فرعون الا بالاتزان والحجة والمنطق فى ثبات ووقار :

« قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين * قال فعلتها اذا وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل * قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ، ان كنتم

تعقلون * قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين * قال أو لو جئتك بشىء مبين * قال فأت به ان كنت من الصادقين * فألقى عصـــاه فاذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين)) .
(الشعراء : ١٨ ــ ٣٣)

أما ثقة موسى العميقة بربه ، فلم تغادره لحظة واحـــدة ، والا فما كان له أن يلبث ساعات معـــدودات أمام فرعون ، الذى اكتملت فيه كل نزعات العناد والطغيان والاستبداد .

لم يرعو فرعون مما رأى من الآيات ، ولكنه واصل عناده :

((قال للملا حوله : ان هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون)) .

(الشعراء : ٣٤ ــ ٣٦)

ان المواقف الحاسمة التى مرت بموسى خلال كفاحه الشاق المرير ، كانت ثقته العميقـــة بالله هى التى منحته طاقة كبيرة من الاحتمال ، وفتحت أمامه آفاقا فسيحة من الأمل فى نصر الله لدعوته .

كانت ثقته العميقة بربه ترعاه حين ائتمر به ملأ فرعون لقتله ، فخرج من المدينة خائفا يترقب ، وهائما على وجهه دون غاية أو هدف ، فاتجه الى الله لينجيه ثم يهديه سواء السبيل :

((وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين * فخرج منها

خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين * ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

(القصص : ٢٠ — ٢٢)

وثقته العميقة بالله كانت ترعاه ، حين واجه فرعون الجبار بدعوته ، فلقى منه تهديدا بسفك دمه ، وسخرية من ربه ، فلجأ موسى الى ربه ، لأنه لا ملجأ له سواه :

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد * وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

(غافر : ٢٦ ، ٢٧)

وثقته العميقة بالله كانت ترعاه ، حين وقف وجها لوجه أمام سحرة فرعون ، فى موقف حاسم يحدد الأوضاع بين الحق والباطل ، ولم يفت موسى أن يتجه الى ربه ليأخذ بيده فى هذا الموقف القاتم الحاسم :

« فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ، ان الله سيبطله ، ان الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » .

(يونس : ٨٠ — ٨٢)

وثقته العميقة بربه لم تتخل عنه فى موقف من أخطر المواقف التى مرت بحياة رسالته ، وهو الموقف الذى تحددت فيه نهاية موسى بالنصر ، ونهاية فرعون بالهلاك ، وذلك حين هاجر بنو اسرائيل من مصر ، وتبعهم فرعون بجنوده ، وهناك أوشكت

أعصاب بنى اسرائيل على الانهيار ، لولا أن تداركتها ثقة موسى العميقة بربه :

« فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون * قال كلا ان معى ربى سيهدين * فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معــه أجمعين * ثم أغرقنــا الآخرين * ان فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين * وان ربك لهو العزيز الرحيم » . (الشعراء : ٦١ ـــ ٦٨)

ولا يطعن فى طاقة الاحتمال التى تمتع بها موسى ، انه فى حياة دعوته حدثت منه عدة انفعالات نفسية ، وعدة توترات فى أعصابه ، وعدة فلتات فى تصرفاته ، فهو مثلا لا يكاد يسمع باستغاثة الذى من شيعته ، حتى يواجه خصمه بوكزة تقضى عليه ، وحين يعود من ملاقاة ربه ، ويرى قومه يعبدون عجل السامرى ، يأخذ بلحية أخيه هارون ورأسه ويهزهما ، ويأخذ فى تأنيبه تأنيبا قاسيا مرا ، وحين يبلغ به وبقومه أذى فرعون مبلغا كبيرا ، يضرع الى الله أن يطمس على أموال أعدائه ، وأن يشدد على قلوبهم ، واستعجال هلاك العدو هروب من الميدان ، ومن شأنه أن يقلل من قيمة طاقة الاحتمال .. هكذا قد يرى البعض .

والواقع أن هذا كله لا يطعن فى طاقة الاحتمال ، فهل كان ينتظر من موسى أن يتوانى فى نصرة مظلوم وقع فى قبضة ظالم لا يرحم ؟ ان موسى استشعر النــدم ـــ لا لأنه ارتكب جريمــة قتل بدافع من سبق الاصرار ـــ وانما لأنه كان سببا فى ســفك دماء ، وهو الذى هيىء لحمل رسالة انسانية لاحلال شريعــة الرحمة والعقل والمنطق والحجة ، مكان شريعة سفك الدماء .

وان موسى ترك قومه فى رعاية أخيه هارون حين ذهب لملاقاة ربه ، وعاد ليجدهم عاكفين على عبادة عجل من صنع السامرى ، فهل يلام موسى على ثورته على اخيه وهو المسئول الأول فى نظره ، أم كان يطلب منه أن يواجه هذا الهول بابتسامة هادئة ، ان الأمر من الشدة بمكان ، فاقدام القوم على عبادة العجل بعد تخليصهم من عبادة فرعون ليس أمرا هينا ، ثم ان ثورة موسى سرعان ما سكنت ، حين علم من اخيـــه أنه حاول صدهم ووقف ضعفه وعجزه فى طريق محاولته ، فاتجه الى الله أن يغفر له ولأخيه :

« ولما رجع موسى الى قومه غضبان اســفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ، والقى الألواح واخذ براس أخيه يجره اليه ، قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لى ولأخى وادخلنــا فى رحمتــك ، وانت ارحم الراحمين » . (الأعراف : ١٥٠ ، ١٥١)

وموسى لم يستعجل هــلاك أعــدائه بدافع من الضعف أو اليأس ، لأنه لبث عشرات السنين لم يستطع خلالها أن يفتح طريق الهداية الى قلوبهم ، فلما تأكد من انه لا جدوى من تضييع الوقت حيالهم ، تعجل هلاكهم ، لأنه لا قيمة لوجودهم ، وحتى يتفرغ هو بعد ذلك لتربية الفئة المؤمنة واعدادها اعدادا لائقا بالرسالة ، وقــد استجاب الله له ، لأنه كان منطقيــا محقــا فيما اتجه اليه :

« وقال موسى ربنــا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال

قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » .

(يونس : ٨٨ ، ٨٩)

ان طاقة الاحتمال فى موسى بلغت حدا جديرا بكل تقدير ، وحسبه عشرات السنين التى لبثها بين أعـــداء جبابرة لا يعرفون غير لغة الدماء ، وأتباع لئام لا يعرفون غير لغة التمرد والعصيان ، ولا يطعن فى طاقة احتماله بضعة انفعالات نفسية ، كانت كلها لله ، ولوضع الأمور فى نصابها .!!!.

***

وما دمنا فى مجال الحـــديث عن طاقة الاحتمال لدى موسى عليه السلام فان هنـــاك سؤالا يمكن أن يثـــار بالنسبة لقصته مع الخضر ، حيث انتهت بأن أثبت موسى عدم قدرته على الاحتمال :

« هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

أقول ان هذه القصة تهمنا من جانبين : الأول يتصل بالرد عن هـــذا التساؤل السابق ، والآخر الرد على مزاعم الصوفية التى اتخذت من قصة الخضر دليلا على أن للعلم ظاهرا وباطنا ..

ويجدر بنا ــ ونحن فى معرض الرد على التساؤل الأول ــ ان نشير الى حديث البخارى ــ باب العلم ــ عن أبى بن كعب عن رسول الله ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ وفى بدايته :

« قام موسى النبى خطيبـــا فى بنى اسرائيـــل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم ، فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه : ان عبدا من عبادى بمجمع البحرين

هو أعلم منك . قال : يا رب ، وكيف به ؟ فقيل له : احمل حوتا فى مكتل — شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعا — فاذا فقدته فهو ثم — أى هناك ... » ثم سرد الحديث بقية القصة كما وردت فى القرآن ..

وواضح من سياق القصة أن الهدف يتركز على التربية لرسول هو من أولى العزم من الرسل .. ونحن نستبعد أن يكون موسى عليه السلام قد قصد الغرور ، لكن ظاهر القول يدل على ذلك ، ولذلك عتب الله عليه .. وأراده على أن يتلقى درسا على يد عبد من عباد الله ، لم يصرح القرآن بذكر اسمه ، وصرح باسمه الحديث المشار اليه آنفا .. وهو الخضر عليه السلام ..

وقد بدا من سياق القصة أن موسى لم تتوافر لديه طاقة الاحتمال ، حتى قال له الخضر فى آخر اللقاء : ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، والحق أن ما أتاه الخضر من الأعمال الثلاثة : خرق السفينة ، وقتل الغلام ، واقامة الجدار ، كان يستدعى العجلة فى الوقوف على حقيقة الأمور ، ولا ننسى أن موقف موسى هناك كان موقف طالب العلم ، ولم يكن موقف الصبر على المكاره ، والصبر فى مواجهة الصعاب ..

أما الجانب الآخر ، فهو الرد على مزاعم الصوفية ، فى أن القصة دليل على أن للعلم ظاهرا وباطنا ، أو أن الاسلام شريعة وحقيقة ، وليس فى القصة شىء من ذلك . فقد رتب الله سبحانه القصة من أجل موسى ، وهى خاصة بموقف من المواقف لم يتكرر ، ثم بالاضافة الى ذلك أن فى هذه القصة بيان أصل عظيم من أصول الاسلام — كما يقول الامام النووى فى شرح مسلم — وهذا الأصل العظيم ، هو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع ،

وان كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ، ولا يفهمه أكثر الناس ، وقد لا يفهمونه كلهم ..

وعلى كل ، فقـــد كان للخضر مهمة أداها وانتهى ، وذلك بتوجيه من الله عز وجل ، ففى آخر الآيات : « ... **وما فعلته عن أمرى** ... » ولم يعد للخضر حديث يذكر بعد ذلك ، لكن المتصوفة ومنهم الباطنية نسجوا الأساطير حول الخضر وقصته مع موسى ، وجعلوا من الخضر حيا خالدا يذكر . ويقول الشهيدا سيد قطب فى « الظلال » بعـــد الانتهاء من عرض قصة الخضر مع موسى :

« ثم ينفض الرجل ــ أى العبد الصالح ــ يده من الأمر ، فهى رحمة الله التى اقتضت هذا التصرف ، وهو أمر الله لا امره ، فقد أطلعه الله على هذه المسألة وفيما قبلها ، ووجهه الى التصرف فيها ، وفق ما أطلعه عليه من غيب : « رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى » . وفى دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفى الرجل من الســياق كما بدأ ، لقـــد مضى فى المجهول كما خرج من المجهول ، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها الا بمقدار ، ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار .. » .



ظروف الدعوة

كانت الفترة بين هلاك قوم نوح وعاد وثمود ، وبين دعوة موسى فترة طويلة الأمد ، كما كانت الفترة بين دعوتى ابراهيم وموسى فترة طويلة الأمد أيضا ، ولذلك لم يكن فرعون وقومه متهيئين تهيؤا تاما للتجاوب مع رسالة موسى ، ولا للعظة والعبرة بما حدث لقوم نوح وعاد وثمود .

نعم ، كانت دعوات الأنبياء والرسل بين ابراهيم وموسى مسلسلة متصلة الحلقات تقريبا ، ولكن ليس هناك دعوة نبى ، أو رسالة رسول قد احتلت حيزا مهما فى المجتمع ، ولا مكانا مرموقا فى التاريخ ، لأنها كانت أشبه بالدعوات والرسالات المحلية الضيقة الحدود ، ولذا لم يهتم القرآن بها اهتمامه بالدعوات التى شغلت جزءا مهما من التاريخ ، وكل ما حدثنا القرآن بشأنها ، لم يكن سوى المام وجيز يتعلق بأشخاص انبيائها ورسلها وصفاتهم وأخلاقهم ، دون أن يمس كنهها وظروفها والملابسات التى أحاطت بها .

نحن نجد أن هودا عليه السلام كان ينذر قومه — عادا — بما حدث لقوم نوح ، كما كان صالح عليه السلام ينذر قومه — ثمود — أيضا بما حدث لقوم عاد ، لأن التقارب فى الزمان والمكان كان من الممكن أن يهب للعظة والعبرة تأثيرهما فى النفوس ، وهذا ما لم يحدث فى عهد موسى لما كان بينه وبين عهود نوح وعاد وثمود من تباعد فى الزمان والمكان ، يتعذر معه التأثير فى النفوس .

جاء على لسان مؤمن آل فرعون انذار عابر لقوم فرعون حين قال : « ... انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد » . ولكنه لم يلق اهتماما يذكر من قوم فرعون الذين لم تكن أذهانهم مهيأة لمثل هذا الكلام ، ولا واعية شيئا من ماضى التاريخ وعظاته وعبره .

وأود أن أقول : ان دعوة موسى لم يحط بها من الظروف ما يساعد على نجاحها وتدعيم أسسها ، بل على العكس ، كانت ظروفا غنية فى اقامة العراقيل والعقبات فى طريق الدعوة .

واذا كانت مقاييس طاقة الاحتمال لا تكون صحيحة الا بالظروف المحيطة بها ، فان ظروف دعوة موسى كانت لونا من الشذوذ لا مثيل له ، ولا غرابة فى أن يتمتع أعداء الدعوة بما استطاعوا من الجبروت والطغيان ، ولكن الغرابة فى أن يتمتع أتباعها أيضا بأكبر قسط من التمرد والعنت والعصيان ، وأكبر قسط من الجبن والجحود والتقهقر .

والحديث عن أعداء رسالة موسى وأتباعه حديث لا تستوعبه أضخم الكتب ، ولكن هناك معنى واحدا يجب أن نقف أمامه لحظات ، وهو أن موسى كان مضطرا للكفاح فى ميدانين : ميدان يواجه فيه أعداءه ، ليكافح فيهم الغطرسة والوحشية والمروق ، وميدان آخر يواجه فيه أتباعه ، ليكافح فيهم العنت والتقهقر والالتواء ..

ولك بعد ذلك أن تقدر — ازاء هذه الظروف — أية مهمة شاقة ألقيت على عاتق موسى صلوات الله عليه .

لعل تاريخ الرسالات الالهية لم يعرف عدوا لها أفجر عدوانا ، ولا مناهضا لها أجبر بطشا وطغيانا من فرعون ، هذا الذى انفرد بادعاء الألوهية وعض عليها بالنواجذ ، وأعلن الحرب على اله السموات والأرض ، حتى لا يزاحمه مزاحم فى الوهيته :

« وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين » . (القصص : ٣٨)

والعجيب أن ادعاء فرعون الألوهية ، قد جاء نتيجة تخديره قومه واستخفافه اياهم ، والعبث بعقولهم :

« ونادى فرعون فى قومـه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقرنين * فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين » . (الزخرف : ٥١ ـ ٥٤)

والتاريخ لم يعرف فى حياة البشرية سفاكا للدماء ، شرها فى ازهاق الأرواح ، متفننا فى ابتداع جرائم التنكيل ، كما عرف فرعون ..

ان لغة الدماء عرفتها ـ من غير شك ـ البشرية منذ عهد آدم أبى البشر ، ولكن حين يكون الأطفال الأبرياء ضحايا هذه الدماء ، فان لغة الدماء تصبح وقفا على الوحوش الضارية ، والذئاب الجائعة ، والكلاب الهائمة .

وقـد رضى فرعون لنفسـه أن ينافس الوحوش والذئاب

والكلاب فى مهمتها ، فراح يتلذذ بسفك دماء أطفال بنى اسرائيل حتى لا يخرج منهم الغلام المنتظر ، الذى يكون هـــلاك فرعون على يديه .

واذا كان سفك دماء الأطفال الأبرياء أفظع جريمة عرفتها البشرية ، فان فرعون ابتكر جريمة أدبية لا تقل فظاعة عن الجريمة الدموية ، فانه امعانا فى التنكيل ، وامعانا فى الحذر ، استبقى نســـاء بنى اسرائيل وحال بينهن وبين أزواجهن ، حتى يضمن الا يخرج الى الحياة من يقوض ملكه .

ويظهر أن الله أراد أن يفضح فرعون فضيحة تاريخيـــة ، فان ارتكاب فرعون الأمثال هذه الجرائم الدموية والأدبية ، تجعله فى موقف الجبان ، وموقف الكاذب فى ادعائه ، اذ لو كان الها حقيقيا ، لما خشى شيئا ، ولما لجأ الى لغـــة الوحوش والجبناء والوضعاء ..!.

وهناك معنى يجب الا يغيب عن أذهاننا ، وهو أن شره فرعون فى سفك الدماء ، واستحياء النساء ، كان مرضا مزمنا فيه ، واذا كان له فى نظره الأحمق ما يبرر وحشيته قبل ظهور موسى ، رغبة التخلص من عدوه المنتظر ، فأى مبرر له فى وحشيته بعد ظهور موسى ؟ وما ذنب الأطفال والنساء بعـــد أن ظهر المولود المقصـــود ؟ الا أن يكون المبرر تلذذ فرعون بهـــذه الوحشية التى لطخت تاريخ الانسانية ..!.

« وقال المـــلا من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ، وانا فوقهم قاهرون » . (الأعراف ١٢٧)

ولم تكن شيعة فرعون أقل منه فجورا ، استخفها فأطاعته ، ودفعها الضعف الى تأليهه وهى تعلم انه أعجز من العجز ، فرأى فى نفسه الها لا مزاحم له ، وكانت لا ترى لونا من الاخلاص أحسن من أن تتزلف اليه بتحريضه على سفك الدماء .

وأصبحت هذه الشيعة مثلا سيئا لبطانات الحكام الجبابرة ، لأن البطانة الضعيفة الخلق ، والوضيعة النفس ، هى التى تخلق الجبروت والطغيان فى الحاكم ، والشعوب القوية أجدى للأمم من الحكومات العادلة ، وان كان لا غنى عنها لها ، لأن الشعوب القوية تحمل الحكومات الطاغية على العدل والاستقامة ، والشعوب الخائرة المتخاذلة تشجع الحكومات العادلة على الفجور والطغيان ..!.

وكما كانت شيعة فرعون مثلا سيئا للبطانات ، كذلك كانت مثلا أسوأ للعناد والصغار ، فهم تارة يتشاءمون بموسى اذا أصابهم ضر ، ويتوسلون اليه تارة أخرى ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولا يكاد الله يستجيب لموسى رجاءه فى رفع العذاب عنهم ، حتى يرتدوا الى التمرد والغدر والعناد :

« ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، الا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل *

فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون)) .

(الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٥)

اما أتباع موسى ـ ونعنى بهم بنى اسرائيل ـ فقد منحوا بأخلاقهم الرسالة ظرفا خاصا ، فالرسول يمتزج اتباعه عادة بدعوته ، ويبذلون غاية الجهد فى تدعيم أسسها ، ويعيشون مع قائدها أطوع له من بنانه ، والقيادة لا يستقيم لها حال الا اذا وجدت تعاونا من الأتباع قائما على الطاعة قبل كل شىء .

ولم يجد موسى من أتباعه شيئا من التعاون ، بل على العكس وجد كل عنت وتمرد ، ولكى تتصور مدى عنت أتباع موسى على حقيقته ، يجب أن تمر مرورا عابرا على مدى ما أسبغ الله عليهم من نعم ، لم تقابل منهم بشىء يذكر من الشكر والوفاء ، والآيات القرآنية وحدها ناطقة ـ فى ايجاز ـ بهذه النعم :

((واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم * واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)) .

(البقرة : ٤٩ ، ٥٠)

((وظللنا عليكم الغمام وانزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ...)) .

((واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)) .

(البقرة : ٥٧ ، ٦٠)

« ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين » . (الجاثية : ١٦)

والذى يتدبر بعض الآيات التى تصدت لأخلاق بنى اسرائيل ، يقف على حقيقة نفسيتهم ، التى تستوعب ثروة كبيرة من الخبث والوضاعة والغدر فجعلتهم مثلا سيئا فى كل قيم الحياة .

ان القلم ليقف حائرا أمام أخلاق هؤلاء ، ولا يسعه الا الاقرار بالعجز فى تصوير حماقتهم وتمردهم وعنتهم .

لقد أنجاهم الله من طغيان فرعون ، وشق لهم فى البحر طريقا يسلكونه ، وأغرق فرعون وقومه لتتم لهم حريتهم وطمأنينتهم ، وما كادوا يأتون على قوم يعكفون على أصنام لهم ، حتى طلبوا من موسى أن يجعل لهم الها كما للقوم آلهة ... ولم يكد يذهب موسى الى لقاء ربه ، حتى سولت لواحد منهم ــ وهو السامرى ــ نفسه أن يصنع لهم عجــلا من حليهم ، ولم يترددوا فى العكوف على عبادته ، وكأن الله لم يخلصهم من عبادة فرعون ، الا ليعبدوا الأصنام والأوثان .

أما تمردهم على أوامر الله فقد بلغ حدا لا يطاق ، لقد طلب منهم أن يغزوا الأرض المقدسة ، فانتحلوا عذرا سخيفا ، بأن فيها قوما جبــارين ، وأصروا على عدم دخولهــا ما داموا فيهــا ، واستطاعوا أن يضعوا حدا لالحاح موسى عليهم حين قالوا له : إذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هاهنا قاعدون ..! وتجاهلوا أن الله الذى شق لهم طريقا فى البحر يبسا وأهلك عدوهم بعد نجاتهم ، يستطيع أن يمدهم بالقوة لافناء هؤلاء الجبابرة .. ولكنه التمرد !.

وليتهم وقفوا عند حد التمرد على الأوامر ، ولكنهم كانوا يتحايلون فى هـــذا التمرد ، فقد أمروا بتعظيم يوم السبت وعدم التعرض للصيد ، وكانت الحيتـــان تكثر فى هـــذا اليوم لاختبار أخلاقهم ، وأمام اغراء الحيتان لجأوا الى الحيلة ، يرمون شباكهم قبل أن يبدأ يوم السبت بساعات ، ليسحبوها مزدحمة بالحيتان بعد انتهاء السبت بلحظات ..

وأما العنت فقد بلغ فيه بنو اسرائيل الذروة ، وهم فى هذا الميدان لا يبارون ولا يزاحمون ، لأن اللون الذى كانوا يتمتعون به من العنت يثير كثيرا من الدهشة والعجب ، فالقوم الذين يريدون الشدة لأنفسهم من حيث لا تراد لهم ، وتغدق عليهم لذائذ النعم فيطلبون التوافه ، ويذهبون لاعلان الندم من حماقة سلفت منهم فيرتكبون اشد منها حمقا وسفها ، أمثال هؤلاء القوم فى تصرفاتهم هذه ، لا يكفى أن يوصفوا بالسفه والحماقة ، الا اذا كان الدافع اليها الجهل والغباء ، أما حين يكون الدافع اليها الخبث واللؤم ، فان القـــلم ليقف عاجزا عن تصوير الألفـــاظ التى تليق بسفههم وحماقتهم .

ورحم الله الشاعر محمود غنيم ، فقد جاء فى قصيدة له :

انى لأنقص للأنذال قدرهمـــو
ان قلت : ان بنى صهيون انذال

وبنو اسرائيـــل باشروا أمثال هـــذه التصرفات ، ولا نظن ان الدافع اليها كان الجهل والغباء ، وانما كان الخبث واللؤم المركزين ، ودماء الشر التى تجرى فى عروقهم .

امروا بذبح بقرة لتعينهم عن طريق علم النفس ، على الكشف عن خبايا جريمة قتل ، وكان فى استطاعتهم ان يذبحوا اية بقرة ، ولكنهم سألوا عن أوصافها العامة واجيبوا ، ثم عادوا ليسألوا عن لونها واجيبوا . ثم عادوا مرة ثالثة ليسألوا عن أوصافها العامة واجيبوا ، وهكذا أرادوا لأنفسهم المشقة من حيث لم ترد لهم .. وأمدهم الله بالطيبات اللذائذ من الطعام ، وفى مقدمتها المن والسلوى وهما من لذائذ الفاكهة والطيور ، فتمردوا عليهما واعلنوا موسى بعدم استطاعتهم الصبر على طعام واحد ، وطلبوا البقل والقثاء ، والفوم والعدس والبصل .

ويختار موسى منهم سبعين رجـــلا لينوبوا عن بنى اسرائيل فى اعلان النـــدم على ما فرط منهم فى عبادة عجـــل السامرى ، ولم يكن غريبا على أخلاقهم أن يتمردوا على موسى ، ويشترطوا فى مثل هذا الموقف لايمانهم ، رؤية الله جهرة .

وما عنى القرآن فى مجال الدعوات عنايته بعنت بنى اسرائيل وتمردهم ، وحسبهم أنهم صاروا اســـوأ مثل فى هـــذين الخلتين الهزيلتين ، ولقد كان محمد حين يناله شىء من عنت أصحابه ، لا يسعه الا أن يهز راسه قائلا :

« لقد أوذى أخى موسى بأكثر من هذا فصبر » ..!.

* * *

النتـــائج

ان رسالة موسى احتلت جانبا واسعا فى التاريخ ، وتمخضت عن أحداث جسام ستظل الى الأبد مبعث الدهشة والاعتبار .

لقد واجهت أول ما واجهت استعبادا واستبدادا يفرضهما فرعون بسطوته على بنى اسرائيل ، واستخفافا وكبرياء بعقلية قومه ، وكان يختفى فى شخص فرعون غرور منحه الألوهيـــة المستبدة الطائشة ، التى لا يحق لمخلوق أن يقف فى سبيلهـــا ، فهو يصر على أن لا اله فى الأرض غيره ، وتستبد به الوقاحة فيطلب من هامان وزيره أن يبنى له صرحا ليصعد الى اله موسى المزعوم ــ كما خيل اليه ــ ويجليه عن السماء ، ولقد كانت هوايته المحببة ــ مع وقاحته هـــذه ــ سفك الدماء ، دماء الأطفال الأبرياء ، واستحياء النساء ليتلذذ باحراج احساساتهن ، وتسخير الرجال ليتلذذ بقدرته على جعل الانسان حيوانا يتألم ولا يملك الشكوى !.

وكانت رســـالة موسى تواجـــه فى نفس الوقت قوما مستضعفين ، استعذبوا الضعف حتى امتزج بدمائهم ، واستمرأوا مرعى العبودية حتى حطوا رحالهم فيها ، واستطابوا السخرية حتى نسوا آدميتهم واندمجوا فى الحيوانية المحضة .

كان على رسالة موسى أن تضع حـــدا لاستبداد فرعون ووقاحته ، وحدا لتخاذل المستضعفين وانهيارهم ، وبعد كفاح دام عشرات الأعوام ، تلاشت ألوهية فرعون وتلاشى معهـــا كيانه

ووجوده ، وتخلص المستضعفون ليرثوا مشارق الأرض ومغاربها ، وازدادت تأكيدا بذلك سنة من سنن الحياة ، هى أن مصير الظلم هو الانهيار ، ولا مصير له غيره ، وان الحق مهما اختفى لابد أن يعود الى طبيعته من الظهور :

« وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا ادركه الغـــرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من النـــاس عن آياتنـــا لغافلون » .

(يونس : ٩٠ ـــ ٩٢)

« واورثنـــا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » .
(الأعراف : ١٣٧)

ولم يكد يمنح المستضعفون المنبوذون شـــيئا من الحرية ، ويلمحوا بصيصا من الاعتزاز ، حتى اثبتوا ان الضعف قد تمكن من نفوسهم ، فلم يعودوا جديرين بالقوة ، وأن الذلة قد امتزجت بدمائهم ، فلم يعودوا أهـــلا للاعتزاز ، ووجدت رسالة موسى نفسها أمام مشكلة معقدة ، مشكلة بنى اسرائيل الذين اورثتهم الذلة والعبودية عنتـــا وتخاذلا وصـــغارا ، ولم يكادوا يشمون أنفاسهم ويرفعون هاماتهم حتى استأسدوا على موسى ، محاولين أن يخذلوا اليد التى خلصتهم ، ويتمردوا على الدعوة التى استردت لهم كيانهم ..!.

حاول موسى أن يعالج نفوسهم ، وحاول ان يعالج أخلاقهم ، وحاول أن يعالج عقلياتهم ، وضاعت محاولاته كلها سدى ، ولم يكن بد من أن يحدد الله موقفهم ، فى وقت حرج استدعى شهامتهم فأثبتوا أن لا شهامة فيهم ، طلب موسى منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ، فتمردوا عليه بحجة أن فيها قوما جبارين ، وحاول أن يستثير رجولتهم فلقى منهم تهكما ووقاحة : اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ..!.

ولم يكن هناك من علاج لهؤلاء الا اعتبارهم كمية مهملة ، ليتخبطوا فى دياجير التيه أربعين عاما ، لا يكترث لحياتهم ، ولا يؤبه بوجودهم ، وذلك ليفنى جيل من الناس فناء بطيئا ، وليكون بعد ذلك عظة للأجيال التى يريد الله لها الحياة .. وتأبى الا أن تعيش كميات مهملة ..!.

« قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها ، فاذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون * قال رب انى لا أملك الا نفسى واخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » .

(المائدة : ٢٤ ـ ٢٦)

لقد أثارت رسالة موسى أحداثا ضخاما ، ولولا أنا فى معرض الايجاز لضاق مثل هذا الكتاب بتحليل هذه الأحداث ، وأبرزها الموقف الذى تجلى خلاله لون من الفدائية التى ضربت رقما قياسيا ، ونعنى بها فدائية السحرة الذين جاء بهم فرعون ليشفوا غليله من موسى ، فلما تبين لهم الحق آمنوا باله موسى ، ولم يستطع تهديد فرعون ولا وعيده اثناءهم عن عزيمتهم ، ونفذ فرعون وعيده بأفظع ما عرفته البشرية من أساليب الوحشية والهمجية ،

وصعدت أرواحهم الى بارئها ، بعد أن ضربوا لأصحاب العقائد مثلا في الفدائية ، واضطروا التاريخ الى أن يسطر بين دفتيه أروع صفحات البطولة ..

((فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل ان آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولاصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى)) . ٧٠ ــ ٧٣ : طه

قد يقال :

ان طلب موسى من ربه : أن يريه أن ينظر اليه قد يوحى بقلق موسى شأنه فى ذلك شأن ابراهيم عليه السلام حين قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى .. وقد سبق أن عرضنا لموقف ابراهيم وأنه لم يكن موقف الشاك ابدا ..

وما نريد ان نضيفه هنا ، هو ان طلب موسى لم يكن عن قلق فيه ، وانما أراد أن يزداد يقينه ، لأن رسالته كانت تستدعى مواجهة خصم عنيد لدود ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ان تزداد سعادته برؤية ربه الذى شرفه بالرسالة ، ويبدو ان طلب موسى ليس غريبا ، وما دام الله قد كلمه فأى مانع فى أن يطالب رؤيته ، ومن هنا يتضح الفرق بين طلب ابراهيم وطلب موسى فحين قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال الله له : أولم تؤمن ، أما حين قال موسى : رب ارنى أنظر اليك ، اجابه ربه

على الفور : لن ترانى ، ويتساوى الموقفان فى أن الله عز وجل استجاب لهما : استجاب لابراهيم بالاثبـــات واســـتجاب لموسى بالنفى . وقدم سبحانه الدليـــل لكل منهما على أنه قد استجاب لكل منهما بما يليق بالموقف :

((ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبـــل جعـــله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين ، قال يا موسى انى اصطفيتك على النـــاس برســـالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)) . (الأعراف : ١٤٣ ، ١٤٤)

والحق اننا لو تدبرنا الموقف بتأن ، لأدركنا أن استجابة الله لموسى لم تكن الا بالنفى الظاهرى ، اما بالاثبات المعنوى فقـــد تجلى واضحا حين تجلى ربه للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا أى ان موسى رأى الله ببصيرته ولم يره ببصره ..

لقد احتلت رسالة موسى اكبر حيز من الفراغ ، وكان من الطبيعى أن تخلف احداثها الجسام من النتائج مالا حصر له ، وقد اوجزت هذه النتائج فى ابرزها ، لان البحث فى معرض الايجاز ، وحسبنا منها ، ان رسالة موسى ازالت من الوجود الوهية غرضت نفسها على الوجود فرضا ، وأزالت الوانا من العبودية لم يسبق لها مثيل ، والوانا من الوحشية تعجز عن اتيانها الوحوش نفسها وتركت بعد ذلك عظات وعبرا — مازالت مشاعل تهز العواطف والاحساسات . !

* * *

٤ – كلمة الله



عيسى عليـــه الســـلام

عيسى هو الرسول الرابع من أولى العزم ، واذا كنا قد اتفقنا على ان هؤلاء الصفوة من الرسل ، انما رشحهم لهذا الشرف الكبير قوة شخصياتهم ، وطاقة الاحتمال التى رافقت نفوســـهم طيلة كفاحهم ونضالهم ، والنتائج الطيبة التى احرزتها دعواتهم ، فان لعيسى قدرا كبيرا فى هـــذه المجالات ، يجعله جديرا بشرف الحيازة للقب أولى العزم من الرسل .

كان عيسى شخصية قوية ، وليس ادل على قوة شخصيته من انه شق لدعوته طريقا ، برغم ما كان يحيط بميلاده من ظروف غامضة ، ويعترض دعوته من صعوبات ، تعاون على اقامتها اليهود بدافع من الانانية والحسد والحقد ، والحكم القيصرى بدافع من الغطرسة والكبرياء ، والكهنوتية المتزمتة بدافع من الحرص على سلطتها وسلطانها .

بلغت طاقة الاحتمال فى عيسى القمة ، وحسبه انه استطاع أن يعيش سنين بدعوته وسط القـــلاقل والفتن والعقبـــــات ، والدسائس والمؤامرات ، دون أن يستسلم لليأس مرة واحدة .

والنتائج الطيبة التى أحرزتها دعوة عيسى ابرز من ان تنكر ، واوضح من ان تجهل ، وحسبنا انها اقامت صرحا لشريعة الاخلاق يقوم على رفعة النفس ، وشفيف الروح ، وسمو الخلق .

ان الله قد أعد عيسى لهـذا الشرف ، حين آتاه البينـات الواضحات ، وأيده بروح القدس ، وتأييده بروح القدس يغنى عن كل معنى من معانى التقدير ، وقد وردت عبارة التأييد هذه فى مجال التفضيل بين الرسل ، والذى برز فيه اسم عيسى تقديرا لمكانته :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس .. »

٢٥٣ : البقرة

ان عيسى كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منـه ، ولا أعتقد أن هناك شخصية كان لها من مظاهر العنـاية والتقدير ، ما كان لشخصية عيسى ، التى تجلت فى ايجادها قدرة الله فى أجلى صورة من صـور القوة ، والتى كان لوجودها وضع خاص لفت الأنظار اليها ، وأثار العقول حولها ، وكانت فى النهاية مثلا أعلى لقدرة الله عز وجل :

« ... انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه .. »

١٧١ : النساء

كان لعيسى وضع خاص لازم ميلاده ، فلأول مرة تفاجأ البشرية بمولد مولود من غير أب ، ومن أم عذراء أجمع على طهرها وعفتها ، وهذا وضع من شأنه أن تسلط عليه أضواء الشكوك ، ثم يفاجأ الناس بأن صاحب هذا الوضع رسول من عنـد الله الى البشرية المتعثرة فى وحل الفوضى والانهيار ، ولك أن تقدر مشـقة المهمة

التى يواجهها من كان هذا شأنه أمثال المسيح ، وليتأكد لك بعد ذلك أن حيازته للقب أولى العزم شرف هو جدير به .

وهناك حدث آخر شاذ بجانب حادث مولده الشاذ ، هو تكلمه فى المهد حين ناقش القوم أمه ، وتولى الاجابة عنها ولهذا الحدث أهميته ، لأنه تأييدلقدرة الله ، ومحاولة لاقناع اليهود الذين تملصوا من هذه القدرة ، فرموا أمه العفيفة بالزنا ، وفى نفس الوقت سند للمسيح فى مهمته الشاقة التى تنتظره ، والتى منحته شرف الدخول فى زمرة أولى العزم من الرسل .

اذن فحياة عيسى من أولها الى آخرها ، كانت مثار جدل ، وقد ساعد على ذلك الظروف التى احاطت بها ، ميلاده وطبيعته احتلا الجانب الأكبر من الجدل ، كما احتل الجانب الأقل خاتمة حياته ، أما الفترة ما بين مولده ووفاته ، فقد انقسمت الى قسمين ، من مولده حتى بداية نبوته ورسالته ، ثم من بداية نبوته ورسالته حتى خاتمته ، أما ما بعد مولده حتى بداية رسالته ، فقد كانت فترة سكت عنها القرآن حتى لا تشغل بها الأذهان ، ونحن المسلمين مأمورون بأن نسكت عما سكت عنه القرآن . وطبيعة المنهج القرآنى فى سرد قصص الأنبياء ، أن يسجل القصص منذ بداية النبوة والرسالة ، ويسكت عما سبقها من زمن لأن القرآن يركز على مواطن العبرة والعظة .. ثم ان اهتمام القرآن بمولد عيسى ، لخروج هذا الميلاد على السنن البشرية المألوفة ، كما اهتم لنفس الغرض بميلاد يحيى عليه السلام ، الا أن ميلاد عيسى عليه السلام كان ذا أهمية خاصة ، فقد ولد عيسى من أم دون أب ، أما يحيى فقد ولد من أب عجوز وأم عاقر ، ولم يثر مولده الا دهشة والده زكريا عليه السلام .

واهتم القرآن بالفترة الأخرى ، فترة النبوة والرسالة ..

لقد اختار الله سبحانه الفترة المناسبة لابراز هذا الحدث الجليل . ميلاد عيسى — عليه السلام — من مريم البتول فحسب ، ان البشرية فى ذلك الوقت كانت غارقة الى آذانها فى المادية الصارخة التى هيمن عليها الرومان ونموها وساندوها ، وبالرغم من تلاحق أنبياء بنى اسرائيل فى هذه الفترة الزمنية ، الا أن ذلك لم يكن ذا أثر يذكر فى المادية المتغطرسة التى انهت حياة نبيين كريمين هما زكريا وابنه يحيى ، وبالرغم من وجود بنى اسرائيل — وهم أهل كتاب — الا أن تقوقعهم فى مكان محدود على أنفسهم حال دون أن يتركوا بصماتهم على هذه المادية ..

كان المفروض أن يكون اليهود أولى الناس بعيسى ، لا أن يكونوا حربا عليه وعلى رسالته ، لقد انكروا وجوده وسلبوه الشرعية ، واتهموا أمه البتول بالزنا ، كما أنكروه نبيا ورسولا اليهم ، وسخروا من الآيات البينات فى الحالين ، تكلم عيسى فى المهد ، وقد كان ذلك على ملأ من الناس ، وما اجرى على يديه من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ..

ان آية واحدة من كتاب الله تعالى حددت طبيعة عيسى :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب .. ثم قال له : كن فيكون » .

ان الحقيقة فى مولد عيسى — وان كانت على غير مثال معروف — الا أنها حقيقة أولية معروفة لها سابقة مثلها غريبة ،

اذا كان مألوف الناس هو الحكم والقياس ، هكذا يقول الشهيد سيد قطب فى « الظلال » حول الآية الكريمة السابقة : **((ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ... الآية))** .. فيقول :

« فالمكونات المادية لآدم هى من نوع ذلك التراب .. والتربة الأرضية تحتوى على جميع العناصر التى يتألف منها جسد الانسان عند تحليله ، وعند خلوه من الحياة التى تجعل منه هذا الجسم الحى المعروف ، ولا يزيد عليها الا ذلك الجوهر اللطيف الذى لا يدرى أحد كنهه حتى اللحظة الحاضرة — جوهر الحياة المجهولة الكنه والمنشأ والمصير — وبها تتم كينونة الجسم الحى ، وبدونها هو من تراب ، لأن تركيبها من تركيبه ، وفيه كل عناصرها المادية التى يعرفها التحليل ..

« وآدم أبو البشر .. خلقه الله من تراب .. فجسده لا يحتوى عنصرا زائدا لا تحتويه تربة الأرض التى منها خلق .. أما الحياة الزائدة على هذا التراب ، والتى تتمم كينونته ، وتعلن عن وجوده الحى ، فقد جاءته من الكلمة .. جاءته من توجيه الارادة الى احيائه وإيجاده على هذه الهيئة الانسانية الخاصة .. هذه الارادة التى يعبر عنها بكلمة « كن » لتقريبها الى تصور البشر المحدود ..

« فماذا فى خلق عيسى من غرابة ؟ وماذا فى مولده من شذوذ ، حين يقاس الى خلق آدم ، ومنحه الحياة ابتداء فى هذا الوجود ؟؟ » .

هذا فيما يختص بطبيعة عيسى عليه السلام بشأن مولده ، وبقى الحديث عن طبيعته بشأن ذاته ، بنوته أو الوهيته المزعومتين ، وحقيقته كعبد من عبيد الله شرفه الله بالنبوة

والرسالة ، ونحن كمسلمين ملتزمون بما جاء به القرآن . لا نحيد عنه قيد أنملة ، ومادام القرآن قد اعترف ــ فحسب ــ بعبودية عيسى ، ونفى عنه أية صفة فوقها ، فقد صار ما جاء به كتاب الله جزءا لا يتجزأ من عقيدة كل مسلم ، فماذا يقول القرآن :

« يا أهــل الكتاب لا تغلوا فى دينــكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منــه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا » ..

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا » .

(النساء : ۱۷۱ ، ۱۷۲)

ان عقيــدة التثليث عقيــدة وثنية سابقة على المسيحية ، وهذا ما يقول به علماء أوربا المسيحية ، كانت عند البراهمة ، وعند البوذيين ، وعند قدماء المصريين ، وعند الفرس ، وعند أهل أوربا : اليونان والرومان ، بل وفنلندا واسكنديناوا ..

وليس هــدف كتاب « أولو العزم من الرســل » الدخول فى مناقشات طويلة ، وانما الهدف ابراز السمات والملامح التى جعلت هؤلاء الرسل الخمسة أولى العزم ، أما القضية التى عرضناها آنفا فمجال بحثها مؤلفات المفكرين الاسلاميين كالأئمة : ابن حزم فى « الفصل فى الملل والنحل » والغزالى فى « الرد الجميل لالهية المسيح فى الانجيل » وابن تيمية فى « الجواب الصحيح لمن بدل

دين المسيح » ومن المتأخرين ــ رحمة الله الهندى فى « اظهار الحق » والشيخ أبو زهرة فى « محاضرات فى النصرانية » وغيرهم .

وكتاب « الرد الجميـــل » للغزالى من الكتب الجيــدة ، ومن المؤسف أن يكون أول من عنى بنشر هذا الكتاب القيم هو الأب « روبير شدياق » اليسوعى ، وذلك فى باريس سنة ١٩٣٩ ، وأن يكون أول من اكتشف رسالة الامام الغــزالى هو المستشرق الفرنسى المعــروف « لوى ماسنيون » المتــوفى سنة ١٩٦٢ م ، وهو أستاذ الأب اليسوعى شدياق والمشير عليه بطبع الرسالة ، وأخيرا قام مجمع البحوث الاسلامية بطبع الرسالة فى سنة ١٩٧٣ م ويرجع الفضــل ــ بعد الله سبحانه ــ للعــالم المحقق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق ، الأمين العام المساعد سابقا لمجمع البحوث الاسلامية ، وهو لم يكتف بتحقيق النص للامام الغزالى ، بل ترجم مقدمات الأب روبير شدياق ، وناقش ما جاء فيها ، كما ناقش آراء الذين حاولوا أن يشـــككوا فى نســـبة الرســـالة للغـــزالى ، من المستشرقين والمبشرين ..

وناهيك بعـــالم كالغزالى حين يتصدى لأمر من الأمور ، وفى هـــذا الرد بالذات ، أستعمل المنهـــج العلمى ، بالاضـــافة الى أنه تعقب نصوص الأناجيل التى عبرت عن ألوهيـــة المسيح نصا نصا ..

هذا فيما يتعلق بطبيعة المسيح بشأن ميلاده وبشأن عبوديته لله ، وليس ابنا للاله ولا الهـــا .. ولا ثالوثا .. أما فيما يختص بنهاية المسيح ، فالذى عليـــه كتاب الله عز وجل أنه مات ميتة عادية ، ولم يصلب ولكن شبه لهم ، ورفعه الله اليه كما يرفع أرواح الصالحين ، وهكذا يقول صاحب الظلال :

« لقد ارادوا قتل عيسى وصلبه ، واراد الله أن يتوفاه وفاة عادية ، وأن يرفعه اليه كما يرفع أرواح الصالحين من عباده ، وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا ومن البقاء بينهم وهم رجس ودنس » ..

وبعد وفاة عيسى عليه السـلام توقفت قصته فى القرآن ، ونحن نتوقف عندما يتوقف القرآن ، فالعبرة من السرد القصصى قد تحققت ، وكفى ..

ونحن نعرض لشخصية عيسى عليه السلام أحيانا من واقع الأناجيل فى الجوانب السلوكية والأخلاقية ، وهذا لا يفرض علينا الايمان بكل ما نعرضه ، فالهدف تقرير الواقع تبعا لما جاءت به الأناجيل ، والمسلم به أن الاسلام ناسخ لما سبقه من الشرائع ، وشرع من قبلنا ليس كله حجة علينا ..



قوة الشخصية

ان العناصر الرئيسية للشخصية القوية ، هى الاتزان الذى يهب لها الوقار ، والصراحة التى تحوطها بهالة من الشجاعة ، والشجاعة التى تضفى عليها المهابة ، وقوة العزيمة التى تدفعها الى المغامرة والطموح ، ثم بعد ذلك العاطفة التى تجعل من الشخصية انسانا ذا قلب ينبض بالحنان والعطف والرحمة .

ولقد تفاعلت هذه العناصر كلها فى شخصية المسيح تفاعلا قويا ، وكان أقواها تفاعلا ، الاتزان الذى رافقه منذ كان فى المهد الى أن انتهى أجله من الأرض ، فحين نوقشت أمه العذراء حقيقة ابنها — وهى صائمة عن الكلام — أشارت اليه ليتولى الدفاع عنها وعن نفسه ، وحين أخذتهم الدهشة صاحوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ..؟ وأنطق الله المسيح ليبرز فيه أول عنصر من عناصر عظمة الشخصية .. وهو الاتزان :

« قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » . (مريم : ٢٩ — ٣٣)

وتآمرت طوائف اليهود وفى مقدمتها الكتبة والفريسيون على المسيح لتعوق رسالته عن السير ، وكان العنت والتمرد معا ، سلاحا لهذه الطوائف ، ولكن المسيح لم يكن ليأبه بها

ولا بسلاحهـا ، لأن الاتزان الذى امتزج بشخصيته كان كفيلا بأن يحبط مؤامرتها ويرد كيدها فى نحورها .

أراد زعماء هذه الطوائف ان يسجلوا عليه نقضه شريعة موسى فأتوا اليه بزانية وقالوا له : ان موسى أمر بهذه أن ترجم فماذا تقول ؟ ورد المسيح فى اسلوب هادىء متزن ، بعد أن صمت طويلا ليخرس السنتهم .. من كان منكم بلا خطيئة فليرمها اولا بحجر ...!.

وارادوا ان يثيروا الفتنة بينه وبين قيصر ، فسألوه : أتجوز الجزية لقيصر ؟ ورد عليهم فى اسلوب متزن ليلجمهم بلجام من الحسرة والألم : اعطوا اذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ...!.

ولقد كان للشيطان موقف مع المسيح ، ولكنه فشل فى أن يخرجه عن هدوئه ، او يسلبه رداء الاتزان الذى لم يفارق جسده ، قال له وقد بلغ به الجوع مبلغه :

ان كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا !!..

واجاب المسيح فى اتزان : مكتوب أنه ليس بالخبز وحده يعيش الانسان ، بل بكل كلمة من الله ...!.

وساومه الشيطان بمنحه سلطان الأرض كله ، لقاء ان يسجد له ، واجاب المسيح فى اتزان :

اذهب يا شيطان ، انه مكتوب : للرب الهك تسجد ، واياه وحده تعبد ...!.

وأراد أن يغرر الشيطان به ، وهو على جناح الهيكل ــ ليلقى بنفسه الى أسفل ــ لأنه مكتوب أن يوصى ملائكته به لكى يحفظوه .. وأجاب المسيح فى اتزان :

انه قيل : لا تجرب الرب الهك ..!.

والصراحة كانت رائد المسيح فى كل مواقفه ، سواء كانت هذه المواقف مما واجه بها أعداء رسالته ، أو واجه بها اتباعها ، ولا نظن انه وقف موقفا واحدا فيه ذرة من المواربة أو الالتواء ، لأن كل الظروف التى أحاطت به يومئذ ، كانت تحتم عليه الصراحة الجريئة التى لا تحتاج الى شىء من التأويل ، ولقد واجه أول من واجه الد أعداء رسالته ، وأعنى .. بنى اسرائيل .. واجههم بمهمته فى صراحة تامة ، غير عابىء بعنتهم وتمردهم والتوائهم :

« ... وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » . (المائدة : ٧٢)

وتعتبر الصراحة التى كان يتمتع بها المسيح لونا فريدا ، كانت أشبه بالعلاج النفسى من أمراض تفشت فى المجتمع فانهارت به الى الحضيض ، فالرياء والجشع والنفاق ، والجدل والعنت والكبرياء ، والانحلال والغرور ، كل هذه وغيرها كانت أمراضا خبيثة سيطرت على المجتمع ، هاجمها المسيح بكل صراحته دون تراجع أو هوادة .

رأى تزاحم الجمع عليه ، تدفعهم شهوة البطن ــ لا الرغبة فى الايمان ــ كانوا معه بالأمس فشبعوا مما يحمل تلاميذه

من طعام ، ولم يكد يصبح الصباح التالى حتى بادروا بالبحث عنه ، ولم تكد أعينهم تقع عليه حتى صاحوا : يا معلم متى صرت هنا ؟.

وادرك المسيح أن شهوة البطن هى التى تحركهم — لا الرغبة فى الايمان — وانطلقت صراحته لتفضح هؤلاء المتطفلين :

« الحق الحق أقول لكم ، أنتم تطلبوننى ليس لأنكم رأيتم آيات ، بل لأنكم اكلتم من الخبز فشبعتم — اعملوا — لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى للحياة الأبدية .. » . ٦ : يوحنا

كان ذات مرة يدعو الى الزهد فى المال الذى يستعبد الانسان ، ويندد بالمتكالبين عليه ، أولئك الذين يلتقطونه من موارد لا تمت الى الشرف بصلة ، وكان الفريسيون — أكثر الناس حرصا على المال والثروة — يسمعون عظات المسيح ، فأحدثوا هرجا ممزوجا بالسخرية والاستهزاء ، وادرك هو أن استهزاءهم به ، لم يكن الا لأن عظاته سفهت أخلاقهم ، فانطلقت صراحته تكشف عن حقيقة أنفسهم التى جعلتهم فى مراتب الحمقى والسفهاء :

« ... أنتم الذين تبررون انفسكم قدام الناس ، ولكن الله يعرف قلوبكم ، ان المستعلى عند الناس هو رجس قدام الله » .

١٦ : لوقا

وكان المسيح على جانب كبير من الشجاعة ، هذه الشجاعة التى كانت تملك عليه كل حواسه ، والذى كانت الصراحة رائده فى كل حركات لسانه وشفتيه ، لابد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة .

والشجاعة فى المرء يكون لها قدرها حين يكون أعزل من القوة والسلاح الماديين ، والمسيح لم يكن بينه وبين السلاح وداد ، بل لم يؤثر عنه انه كان يمسك العصا أو يستلطف رفقتها ، ولم يكن بين المسيح والقوة أية مودة ، الا اذا أمكننا أن نسمى حوارييه الاثنى عشر المهزولين .. قوة .

ولماذا القوة والسلاح للمسيح ؟ وهما مما لا يحتاج اليه الا الأقوياء للبغى والعدوان على الضعفاء ، أو لمقاومة شر من هم أكبر منهم قوة وعددا .

ولم يكن من شيمة المسيح البغى والعدوان على الضعفاء ، كما لم يكن من شيمته مقاومة الشر بالشر ، بل مقاومة الشر بالخير ، والبغى بالعفو ، والعدوان بالتسامح .

اذن فشجاعة المسيح لم تكن مادية تدفعه الى اشعال الحروب ، ولكنها كانت شجاعة أدبية ، لمقاومة أمراض القلوب والنفوس والأخلاق ..

ولقد واجه المسيح أعداء من ألوان متعددة ، وكلهم متسلحون بالخبث والتعالى والغرور ، ومعتدون بقوتهم ، وكان كل سلاح المسيح الشجاعة الأدبية معتدا بثقته بربه ، ومرت السنوات الطوال التى الفت حياة رسالته ، دون أن تنهزم شجاعته مرة واحدة أمام جحافل الشر والبغى والعدوان .

حاول الكتبة الذين كانوا يحترفون تشويه الشريعة وتسخيرها — تحقيقا لرغباتهم وأهوائهم — حاولوا أن يضايقوا المسيح فى احدى الولائم التى حضرها ، فلما ترك تلاميذه غسل

أيديهم قبـــل الأكل ، ثاروا عليهم لأنهم تركوا تقاليـــد الشـــيوخ التى كانت تقضى بغسل الأيدى قبل الأكل ، وانتهز المسيح هذا العنت منهم فأطلق لشجاعته العنـــان ، لتهتك حجـــاب خبثهم وصغارهم :

« وانا أسألـــكم لأى سبب أبطلتم شريعـــة الله لتحفظوا تقاليدكم ؟ ـــ تقولون لأولاد الآباء الفقـــراء .. قدموا وانذورا للهيكل ـــ وهم انما يجعلون نذورا من البزر الذى يجب أن يعولوا به آباءهم ـــ وإذا أحب آباؤهم أن يأخـــذوا نقودا يصرخ الأبناء : ان هـــذه النقود نذر الله .. فيصيب الآباء بسبب ذلك ضيق ، أيها الكتبة الكذابون المراءون أيستعمل الله هذه النقود ؟ ـــ كلا ثم كلا ـــ لأن الله لا يأكل كما يقول بواسطة عبده داود النبى .. » .

« أيها المراءون انكم انما تفعلون ذلك لتملأوا كيسكم ، ولذلك تعشرون السذاب والنعنع ـــ ما أشقاكم لأنكم تظهرون للآخرين أشد الطرق وضوحا ولا تسيرون فيها ..! » . ٣٢ : برنابا

وفى أحـــد المواقف الحاسمة انطلقت شجاعة المسيح تندد بمسلك بنى اسرائيل ، الذين قتلوا الأنبياء ، ونجسوا النبوات ، وعصوا شريعة الله ، ثم هم يسألونه بعد ذلك عما سيعطيهم الله فى الجنة :

« فلكم تمتهنون الله بسلوككم والآن تسألوننى : ماذا يعطينا الله فى الجنة ؟ ـــ فكان يجب عليـــكم أن تسألونى : أى قصاص يعطيكم الله اياه فى الجحيم ، وماذا يجب عليكم فعله لأجل التوبة الصادقة ليرحمكم الله ؟ » . ٦٨ : برنابا

وقوة العزيمة كانت تحتل جانبا كبيرا من شخصية المسيح ، لقد كانت حياته كلها حركة ونضالا ، ولم يحدث خلال حركته الدائبة أن فترت عزيمته ، أو تقهقرت مرة واحدة ، كان يعزم على فعل الشيء ، ولا تستطيع كل القوى أن تثبط من عزيمته ، لأن عزيمته كانت أقوى من أن تعرف الى التراجع سبيلا .

حاول الحمقى من طوائف اليهود أن يحولوا بينه وبين الاختلاط بأصحاب الخطايا ، بحجة أنهم رجس يجب اعتزالهم والنفور منهم ، وفشلت محاولتهم ازاء عزيمته ، وكانت حجته مزيجا من المنطق والفلسفة :

« لا يحتاج الأصحاء الى طبيب بل المرضى ، لم آت لأدعو ابرارا بل خطاة الى التوبة » . ٢ : مرقس

وحاول هؤلاء ايضا أن يحولوا بينه وبين لقاء جحافل المرضى فى أيام السبت بحجة أن يوم السبت هو يوم الرب ، ولا يجوز العمل أيا كان فيه ، واستطاعت عزيمته أن تقهر محاولتهم ، وكانت حجته أيضا مزيجا من المنطق والفلسفة :

« أى انسان منكم يكون له خروف واحد فان سقط هذا فى السبت فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه ـ فالانسان كم هو أفضل من الخروف ؟ » . ١٢ : متى

وتستطيع أن تقف على صورة واضحة لقوة العزيمة فى شخصية المسيح من هذه الحادثة ، لقد رأى الهيكل فى فصح اليهود وقد أصبح سوقا للغنم والبقر والحمام ، فعزم على تطهيره بالقوة من هذه الفوضى التى لا تليق ببيت الله ، وحاول تلاميذه صده

عن عزيمته منعا لما يترتب من الشغب ، وفشلت محاولتهم ، واستطاع أن يصنع سوطا من حبال ويهاجم الباعة صائحا فيهم :

« ارفعوا هذا من هنا ، لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة » .
٢ : يوحنا

وعنصر العاطفة فى شخصية المسيح مما لا يحتاج الى توضيح ، وحسبه أن رسالته انما كانت تخاطب المشاعر والاحساسات الانسانية ، وحسبه أيضا أن الله منحه القدرة على مؤاساة المرضى والعجزة وذوى العاهات ، فعاش مثلا للعاطفة فى أسمى أطوارها ، وأجلى معانيها .

وتستطيع أن تستشف رقة العاطفة فى المسيح من المحاورة التى صورها القرآن بينه وبين ربه ، فى أمر القوم الذين عبدوه من دون الله ، فقد تجلى واضحا من خلالها ما يتمتع به قلبه من رحمة ، ومع أن الشرك جريمة من المحال غفرانها ، الا أن عاطفة المسيح أذهلته عن هذه الحقيقة التى لا جدال فيها ، فنسب هؤلاء القوم المشركين الى ربهم لأنهم خلقه ، ليستدر رحمته عليهم ، ثم لم ييأس من أن تدركهم هذه الرحمة فيغفر لهم ، مع علمه تماما بأن جريمة الشرك من المحال دخولها فى نطاق المغفرة ، لأن عاطفته القوية — كما قلت — أذهلته عن هذه الحقيقة :

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ، أن أعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ،

فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد * ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم)).

(المائدة ١١٦ ـ ١١٨)

كان يكره القسوة فى اية صورة من صورها ، ولذلك كان لسان حاله دائما : « طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ـ لا تدينوا بغير رحمة فتدانوا بغير رحمة » وقد ذكر انجيل مرقس فى الاصحاح العاشر ، أن المسيح راى ذات يوم تلاميذه ينتهرون أطفالا قدموا اليه ، فثار عليهم واحتضن الأطفال وهو يقول :

« دعوا الأولاد يأتون الى ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله ... » .

وكان يفزع المسيح أن يرى مريضا يتألم ، ولا يتمالك نفسه ازاء أناته ، ولذلك لم يكن يرد مريضا يطلب يده ، ولا متألما يرجو بركته ، وكان يصلى من أجل المتوجعين ويدعو أتباعه الى الصلاة من أجلهم :

« صلوا على المرضى ، لأن الله قد سلطنى على كل مرض » .

١٠٠ : برنابا

وارق الوان العاطفة ما حال دون احراج انسان ، حتى لو كان هذا الانسان جديرا بالحرج ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال :

« رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق ، فقال له : أسرقت ؟

قال : كلا ، والله الذى لا اله الا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عينى » .

كانت شخصية المسيح شخصية مثالية ، توافر فيها كل عناصر الشخصية القوية من الاتزان والصراحة والشجاعة وقوة العزيمة ورقة العاطفة ، وزاد على ذلك ، قوة الحجة ، ودقة الاحساس ، ونبل الغاية .

كان نموذجا طيبا للشخصية القوية ، ومثلا رفيعا للانسانية الكاملة ، وكان بعد ذلك أهلا لأن يكون من أولى العزم من الرسل .

* * *

طاقة الاحتمال

ان الذى لا ريب فيه ، أن المسيح كان لابد له من أكبر طاقة من الاحتمال ، فظروفه الشخصية وظروف رسالته ، كلها كانت فى مسيس الحاجة الى طاقة كبرى من الاحتمال ، وما كان لكائن من كان أن يولد من غير أب ، فى وقت كانت الأخلاق فيه تداعب الحضيض ، ثم يقوم يبشر برسالة انسانية محضة فى بيئة تجردت من كل معانى الانسانية — ما كان الأمثال هذا أن يقوموا بمهمته لو لم يكونوا قد منحهم الله أكبر طاقة من الصبر والاحتمال .

ولقد اعتبرت فى هـذا البحث أن عناصر طاقـة الاحتمال فى الرسل : قلب ثابت لا يعرف اليـأس ، وأعصـاب من فولاذ لا تحركها الجبال ، وثقة بالله لا يرتقى اليها الشك ، وهذه العناصر الثلاثة امتزجت بشخصية المسيح . وملكت عليه نفسه ، وكانت سلاحه ومبعث قوته فى أشق مهمة بالنسبة له .

كان المسيح يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا أثبت من الجبـال ، لم يقدر لليأس أن يشق طريقا اليه ، كان يعلم أنه يواجه ماضيا لمولده حافلا بألوان الشكوك ، ويواجـه حاضرا مزدحما بشتى أساليب التمرد والعنت والشغب ، والحقد والأثرة والاستخفاف ، ويواجه مستقبلا غامضا لا يبشر بالخير ، ومع هـذا فان ابتسامة الأمل لم تفارق شفتيه لحظة واحدة ، وان خاطرة من خواطر اليأس لم تخالج نفسه مرة واحـدة ، وان شبح الفشل لم يتراقص أمام عينيه فى وقت من الأوقات .

كان كثير التنقل برغم ما كان يقابل به من الجفوة والاعراض ، لأنه كان كبير الأمل فى أن يجد لدعوته قلوبا خصبة ، وكان يبعث برسله الى الآفاق ويوصيهم بألا يحملهم على اليأس اعراض بلد عن دعوتهم ، بل يواصلوا السعى الى غيره بدافع من الأمل .

والآيات الخوارق بلغت على يدى المسيح حدا لا يطاق ، ولكنها لم تكن وسيلة جدية لاقناع المتمردين .. ولم يفكر فى الزهد فى هذه الخوارق برغم الاستخفاف بها ، بل واصل رجاءه الى الله أن يمنحه الكثير منها ، لأن اليأس لم يقو على مخالفته ، ولأن الأمل كان ملء قلبه وملء نفسه .

وأعصاب المسيح كانت من فولاذ ، وهل كان لمثل المسيح فى ظروف مولده ، وفى ظروف رسالته ، أن يؤدى مهمته كما ينبغى لو لم تكن له أعصاب من فولاذ ؟.

ولقد كانت الانفعالات النفسية الصق بالمسيح من ظله ، ولكنها انفعالات اضطر اليها اضطرارا فى مواقف لم يكن يصلح لها سوى هذه الانفعالات ، التى لم تؤثر فى أعصابه .. ولم تخرجه عن دائرة الاتزان والوقار .

وهناك مواقف لا حصر لها فى حياة المسيح ، كانت بمثابة تجربة لأعصابه ، ولقد نجحت فى التجربة ، ولعل ابرزها كان حين تجمعت حوله طوائف اليهود لتسلط عليه اضواء من الطعن فى نسبه ، وهذا الموقف كان كفيلا بأن يثير أعصابه ويزلزل كيانها ، ولكن المسيح استطاع أن يمر بهذه المهاترات غير عابىء بها ، دون أن تثار أعصابه أو تزلزل ، وكان رده أوضح برهان :

« انى خرجت من قبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى » .
٨ : يوحنا

وفى موقف آخر له شأنه ، سلطت عليه هذه الطوائف أضواء من التحقير الموجه الى حسبه ، وكان رده غاية فى الايجاز وغاية فى الاتزان :

« ليس نبى بلا كرامة الا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته » .
٦ : مرقس

والثقـــة بالله احتلت كل احساسات المســيح وجوارحه ، وهذه الثقة هى التى كانت مبعث قدرته على الصبر والاحتمال ، وفى موقف لا ينسى تجلت ثقة المسيح بربه تجليا يحوط شخصيته بهالة من التقدير ، وذلك ساعة أن شعر بالمؤامرة لاغتياله تحاك من حوله ، وحاول تلاميــذه أن يحــولوا بينــه وبين الذهاب الى اليهودية ، لأن الفريسيين ورئيس الكهنة قد ائتمروا به ، ففشلت محاولاتهم ، لأن ثقتـــه بربه جعلته لا يبـــالى أية قوة ، وكان رده أوضح دليل :

« ... انى علمت بذلك قبل أن فعلوه ـــ ولكن لا أخاف لأنهم لا يقدرون أن يفعلوا شــيئا مضادا لمشيئة الله ـــ فليفعلوا كل ما يرغبون ـــ فانى لا أخافهم بل أخاف الله » . ١٤٧ : برنابا

ان طاقة الاحتمال فى المسيح كانت جانبـــا مهما فى حياته ، كانت رسالته تدعو الى الحب والرحمة والسلام والتجرد ، فى محيط غارق الى آذانه فى البغض والقسوة والعداوة والترف ، واستطاع أن يشق طريقه وسط هذه الأشواك والعقبات ، لأن الله منحه أكبر طاقة من الاحتمال ، كانت مبعث قوته فى ميدان النضال ..

* * *



ظروف الدعوة

ان ظروف الدعوات مرتبطة ارتباطا وثيقا بالظروف المحيطة بها ، والتى يكيفها أتباعها وما يتمتعون به من قوة ، وأعداؤها وما يسيطر على عقولهم من عنت وتمرد ، والبيئة التى تقوم فيها الدعوات ..

ونود أن نسأل أولا :

هل كان المسيح فى حاجة الى أتباع يؤازرونه بقوتهم ؟.

وهل كان له أتباع بالمعنى الصحيح ؟.

والاجابة عن السؤال الأول لا تحتاج الى تفكير ، لأن رسالة المسيح انما كانت انسانية أخلاقية لنشر مبادىء المثل العليا ، وفى مقدمتها الحب والسلام والتسامح ، وما كانت فى حاجة الى أتباع ذوى قوة لحمايتها ، ولكن الى أتباع ذوى ألسنة قوية لنشرها ، لأنها مجموعة تعاليم ينميها النشر لا القوة .

ان المسيح حين كان يبعث تلاميذه للتبشير بتعاليمه ، لا يرضى لهم أن يتزودوا بسيف أو عصا ، لأنهم لن يحتاجوا الى كليهما ، ما داموا يبشرون بالحب والتسامح والسلام .

وقبل الاجابة عن السؤال الثانى ، يجب أن نفهم أن كلمة

الأتباع انما تعنى الأشخاص المنضوية تحت لواء المتبوع ، لشد أزره ، والاستجابة لاشارته ، والتضحية ما وسعتهم التضحية فى سبيل الفكرة المنتمين اليها عن عقيدة وايمان ، ولو طبقنا كلمة الأتباع على أتباع المسيح لما أربوا على الحواريين الاثنى عشر .

وهؤلاء نشأوا — كما أراد لهم المسيح — مطبوعين على التقشف والزهد والتجرد والعزوف عن كل مظاهر القوة ، لأنهم كانوا فى غنى عنها .

وكما نشأهم المسيح على هذه الخصال ، طبعهم أيضا بطابع الصبر والثبات والبذل والتضحية ، وحبب اليهم التجارب القاسية فى بواتق المحن والفتن والاضطهاد ، وسنة الله فى الدعوات أن يتلقى أتباعها مزيجا من التنكيل لاختبار شخصياتهم ، حتى لا يبقى الا من هو أهل لها :

« طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين — افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات ، فانهم هكذا طردوا الأنبياء قبلكم » . ٥ : متى

« سيخرجونكم من المجامع بل تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله » ..!. ٢ : يوحنا

أما ما لقيه المسيح من تمرد طوائف اليهود ، فهو اكبر من أن تحتمله الأعصاب ، فقد جاء وبنو اسرائيل لم تبرأ نفوسهم من العنت ، ولم تتخلص قلوبهم من التمرد ، فكان من الضرورى أن يواجه الوانا من العنت والتمرد يتزعمهما طوائف يهودية ، على جانب كبير من خسة النفس ونذالة الضمير .

فالفريسيون الذين يمثلون الطبقة الأرستقراطية ، والغلاة الجليليون المتطرفون ، والصدوقيون الماديون ، والكهنة المحترفون ، والكتبة المرتزقون .. هؤلاء وغيرهم كانوا بالمرصاد لكل خطوات المسيح ليضعوا أمامها العقبات ، ومن أقوى أسلحتهم التمرد والعنت والاستخفاف ، فاذا أضفت الى هؤلاء .. الدولة الرومانية التى كانت تتعقب حركات المسيح الذى جاء برسالة من شأنها أن تقلب أوضاعها رأسا على عقب ، أيقنت مشقة المهمة التى كلفها المسيح ..

كانت رسالة المسيح تهدف الى اقرار السلام والاخاء والمحبة والرحمة ، ونبذ الماديات أيا كان لونها ، ولم تكن الدولة الرومانية الغارقة الى آذانها فى الدماء والديكتاتورية والجاه ، مستعدة حتى لمجرد الاستماع الى هذه المعانى .

وكانت رسالة المسيح تهدف الى الروحية الخالصة ، ولم تكن طوائف اليهود مستعدة التخلص من المادة التى أصبحت معبودها الوحيد فى حياتها .

وكانت رسالة المسيح تهدف الى وضع حد لاستغلال الكهنة والكتبة الناس باسم الدين ، وما كان هؤلاء وأولئك مستعدين للتنازل عن نفوذهم ، وعما تدره مهنتهم من مال وجاه لا حصر لهما .

والعجيب أن أهداف رسالة المسيح كانت واضحة ، ولكن لم يكن من طباع اليهود أن يتجاوبوا مع المعانى الواضحة ، لأن لهم اهواء وامزجة لا تتجاوب الا مع رغبات النفوس وأمانى الشهوات ..!.

وقد سبق المسيح أنبياء كثيرون ، وما كان نصيبهم من عنت اليهود بأحسن حظا من نصيب المسيح ، كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم اما أن يقتلوه ، واما أن يعطلوا مهمته .. ولقد بذلت طوائف اليهود جهودا جبارة لعرقلة رسالة المسيح وتشويهها ، وكانت معارضتها مجردة من الاخلاص فى تحرى الحقائق ، لأنها كانت ضربا من التمرد ، فمثلا وجهت اليه لوما عنيفا لأن تلاميذه أكلوا دون أن يغسلوا أيديهم ، ولأنه كان يلقى المرضى فى أيام السبت ، وكان يخالط الخطاة ، ولم تكن عقليات هذه الطوائف لتقتنع بمنطق المسيح فى أنه ليس ما يدخل الفم ينجسه ، ولكن ما يخرج منه ، وبأن فعل الخير لا يحرم فى أيام السبت بل فعل الشر ، وبأن الخطاة أحق بالهداية من التقاة .. لم تقتنع عقلياتها بمنطق المسيح ، لأنها كانت أسيرة اللؤم والتمرد والخبث .

وكانت طوائف اليهود حريصة على أن تلصق بالمسيح تهمة الاعتداء على الشريعة الموسوية ، وبرغم أنه كرر لها قوله : ما جئت لأنقض الناموس ، بل لأكمل ... الا أنها كانت تثير الجدل فى مجالسه ، حول المسائل التى كان لابد من خضوعها لتطور الزمن ، واختلاف البيئة ، وذلك لتسجل عليه نقضه لشريعة موسى .

ذكر انجيل يوحنا فى الاصحاح الثامن أن الكتبة والفريسيين قدموا اليه امرأة أمسكت فى زنا ، وسألوه عما اذا كان يقر شريعة موسى التى أوصت برجم الزانية أم لا يقر ، ولم يكن من السهل أن يقتنع هؤلاء المعاندون بأن شريعة المسيح جاءت بعد شريعة موسى بعدة قرون من السنين ، تطورت العقول والنفوس خلالها ، والتغيير فى بعض نواحى الشريعة الموسوية فى عهد المسيح لا يعتبر اعتداء عليها ، لأنه ضرورة اقتضاها التطور وحده .

والمسيح جاء فى فترة بلغت القسوة فيها أوجها ، وكان لابد لشريعته أن تجعل الرحمة من دعائمها ، وأن يكون الخطاة أجدر بها حتى تمهد لهم الطريق الى التوبة ، وفى هذه القضية كان المسيح لبقا ، فهو لم يشأ أن ينقض شريعة موسى حتى لا يهيج شعور المعاندين ، كما لم يشأ أن يأمر برجم المرأة الزانية فيقوض دعامة الرحمة ، ولكنه سلك طريقا منطقيا أبعده عن الحرج ، والجم فى نفس الوقت ألسنة المتمردين ، فقد صمت لحظات طوالا بينما كان يخط بأصبعه على الارض ، ثم وقف ليلقى قنبلة فرقتهم فى صمت وهدوء دون أن تثير همسة واحدة :

« من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر ..! » .

ومرت لحظات خاطفة تلاشت معها جموع المتمردين كلها ، ونظر المسيح الى المرأة وهو يقول لها : أين هم أولئك المشتكون عليك ، أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد يا سيد .. ! فقال لها : ولا أنا أدينك أذهبى ولا تخطئى ايضا .. !

وهناك قضية مماثلة لقضية المرأة الزانية ، أثارتها طائفة الفريسيين ، ليسجلوا على المسيح نقضه شريعة موسى ، فقد ذكر انجيل متى فى الاصحاح التاسع عشر ، أنهم سألوه : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب ، ولم يكن لتطور الزمن ، ولا لتغيير البيئات ولا لالحاح الظروف القاهرة ، أى اعتبار فى نظر الفريسيين ، ولعل عنت بنى اسرائيل مع موسى وتمردهم كانا سببا فى تشريعات للتضييق عليهم، وتشريعات أخرى لتشبع رغباتهم الممتزجة بخسة النفس ، واباحة الطلاق فى عهد موسى أحد هذه التشريعات التى أوجبتها قساوة قلوبهم ، فلو منع الطلاق يومئذ الا لعلة الزنا ، لافتروا ألوانا من الافك يعينهم على التخلص من زوجاتهم .

وفى عهد راج التحلل والترف الى حد لا يطاق ، لم يكن عجيبا يومئذ أن يصير دافعا الى الاستخفاف بحرمات المرأة ، وكان لابد أن تأتى شريعة المسيح لتكبح جماح الشهوة ، التى كادت تدوس بأقدامها كل معانى العفة .

ولم تستطع عقلية الفريسيين أن تهضم فلسفة المسيح .. « يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ، ويكون الاثنان جسدا واحدا ، اذ ليسا بعد اثنين ، بل جسد واحد ، فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان » .

لم تهضم عقليـــة الفريسيين هـــذه الفلسفة ، فسألوه : فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق ؟ فأجابهم بما ألجم السنتهم :

« ان موسى من أجـــل قساوة قلوبكم أذن لـــكم أن تطلقوا نساءكم » ..!.

وهناك لون آخر ينطوى على اللؤم ويخفى وراءه الحقـــد والدس والوقيعة ، ويظهر أن فشل المتمردين فى النيل من المسيح فيما يمس الشريعة ، دفعهم الى اعداد مؤامرة سياسية للايقاع بينه وبين الحكومة القيصرية ، فحاولوا أن يسجلوا عليه استنكارا للجزية ليثيروا عليـــه القيصر ، وسلكوا أسلوبا معسولا لاثارة شجاعته ونخوته ، ليطوقوا حول عنقه حبل الفتنة ، وكان المسيح يقظا ، فاستطاع أن يعبث بعقولهم التى نسجت خيوط الفتنة ، وأن يحبط مؤامرتهم التى أجهدوا فيها أذهانهم .

ذكر انجيـــل متى فى الاصحاح الثانى والعشرين : أن شيعة

هيروديس الحاكم القيصرى مع فئة من الفريسيين اتفقوا على الايقاع بالمسيح ، فقالوا له : يا معلم نعلم أنك صادق ، وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد لأنك لا تنظر الى وجوه الناس — فقل لنا ماذا تظن ، أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟.

وأدرك المسيح خبثهم فقال : لماذا تجربوننى يا مراءون ..! أرونى معاملة الجزية ، فقدموا له دينارا ، وسألهم لمن هذه الصورة والكتابة ، فأجابوا : لقيصر ، فألقى قنبلته الهادئة التى عقدت ألسنتهم وخيبت آمالهم :

« اعطوا اذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » !!..

ولم يسلم المسيح أيضا من عنت أتباعه ، ولو كانوا من العامة لهان الأمر ، ولكنهم خاصة الخاصة ونعنى بهم — الحواريين — وأبرز صورة من صور عنتهم مسألة المائدة ، ولو أنهم طلبوا من المسيح أن يرجو الله انزال مائدة من السماء كآية تطمئن بها قلوبهم ، ما كان فى ذلك وجه للعجب ، فقد طلب ابراهيم الخليل من الله أن يريه كيف يحيى الموتى ليطمئن قلبه ، ولكنهم سألوه بأسلوب الشاك الذى يحاول تجربة قدرة الله : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ..؟ ، ولا يملك المرء الا أن يتعجب ، فهل كان هذا السؤال مبعثه الشك فحسب .. أم مبعثه أيضا العنت الذى لم يسلم منه حتى الخاصة من الأتباع ؟.

ومما يزيد فى كمية العجب ، أن الحواريين الذين تزودوا من المسيح بأكبر قسط من الايمان والقناعة ، انما دفعهم الى طلب المائدة ، الشك وشهوة البطن :

« قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين » . (المائدة : ١١٣)

ولك بعد ذلك أن تكيف كم تحمل المسيح من التمرد والعنت !.

والبيئة التى ظهرت دعوة المسيح فيها ، كانت موبوءة بألوان من الاستعباد الذى فرضه الحكم الرومانى منذ احتلال فلسطين ، فى العام الخامس والستين قبل الميلاد ، ومن الغطرسة التى كان يتمتع بها بعض الطوائف المحظوظة من اليهود ، ومن التزمت الذى كان يلازم شراذم الكهنة بأسرها ، ومن الترف والسخط المتغلغلين فى المجتمع ، ومن المادية الخالصة التى سيطرت على الحياة بأسرها .

وكانت الحروب شهوة تسيطر على عقلية المسئولين عن دولتى الروم والفرس ، اللتين كانتا تتحكمان فى العالم يومئذ ، ولقد غرست هذه الحروب الأحقاد والضغائن بين الشعوب التى احترقت بنارها ، مما جعلها تعيش فوق دوامة من الفزع والقلق والاضطراب .

وازاء هذا كله برزت رسالة المسيح تواجه عدة جبهات قوية : استبداد الرومان باسم الحرية ، وغطرسة بعض الطوائف اليهودية باسم الأخوة ، وتزمت الكهنة باسم المرونة والسماحة ، وترف المجتمع وسخطه ، باسم التجرد والتقشف ، والمادية الخالصة ، باسم الروحية الصافية ، والحرب الضروس ، باسم الحب والرحمة والسلام .

وهذه المبادىء أعلنها المسيح صريحا فى غير التواء ، ليصلح

من حال البيئة ويأخذ بيدها من الوحل الذى كانت تتعثر فيـــه ، ولم يستعن بقوة لأنهـــا تتنافى مع مبادىء الرحمـــة والتسامح والسلام ، التى كانت شـــعار رسالته ــ ولكنه استعان بالمنطق والحجة ، ليكونا سبيله الى الاقناع .

ولقد أيد الله المسيح بكثير من الآيات الخارقة ، لأن ظروفه كانت فى حاجة اليها ، فقد كانت ولادته شاذة لأنه ولد من أم فحسب ، ومن شأن الخوارق أن تخفى كثيرا من أضواء الشكوك التى سلطت على شخصه .

والمسيح أرسل فى ظروف ارتدى العالم فيها رداء الغفلة ، وانجذب الى الأرض ونسى السماء ، والى الجسد ونسى الروح ، والى الدنيا ونسى الآخرة ، والى أهوائه وشهواته ونسى خالقه . ومن شأن الخوارق أن توقظ العالم ليفيق من غفلته ، وينهض من كبوته .

وقد أجمل القرآن هذه الخوارق ، فى أن المسيح منحه الله القدرة على خلق الطير من الطين ، وعلى ابراء المرضى ، واحياء الموتى ، والاخبار بالغيب ، ولبعض الناس تفنن فى اخراج ألفاظ القرآن عن مدلولهـــا عن طريق التأويل فى هذه الخوارق ، حتى تصبح وليست خوارق ، ولهم فلسفة خاصة ، ونحن نرى اليوم خوارق عن طريق التقـــدم العلمى ولا نحاول الانكار عليهـــا ، وأجدر بنا ألا نستكثر أمثال الخوارق التى اتصلت بحياة الرسل على الله عز وجل .. خالق الكون ومدبر أمره .

ولبعض الناس أيضا تفنن فى اغداق آلاف الخوارق على حيـــاة الرسل ، والاســـهاب فيهـــا اسهابا يفسد الذوق ويقتل

من أهمية الخوارق نفسها ، وقد نسب الى المسيح ـ كما نسب الى غيره من الرسل ـ كثير من الخوارق ، حتى ليخيل للانسان أن رسالته لم تكن الا مجموعة كبيرة من هذه الخوارق ، فلم تكن هناك حركة تحركها المسيح ، أو كلمة تكلمها الا يلحقها بآية خارقة ، ونحن نعتقد أن هذه الكثرة سببها المبالغة فى غير تحرج ، والنقل فى غير تحر ، وما زالت آلاف الخوارق فى آيات تنسب الى بعض المتظاهرين بالتقوى ، دون أن يثبت جزء من واحدة منها .

هذه المسألة أتفه من أن تناقش ، ولكن هناك ما هو أجدر منها بالبحث ، فقد كان ابراء المرضى ظاهرة بارزة فى آيات المسيح ، ولو دققت النظر لوجدت أن للايحاء دخلا كبيرا فى شفاء المرضى ، وهذا مما لا يقلل من قيمة الآيات ، لأن المقدرة على الايحاء النفسى قوة خارقة أيضا .

وفى الاصحاح التاسع من انجيل متى ، ثلاث حالات كان للايحاء أثر كبير فى شفاء المرضى ، فقد رأى المسيح مفلوجا مطروحا على سريره فقال له :

« قم احمل فراشك واذهب الى بيتك » .. فقام ومضى الى بيته .

وحدث أن أقبلت امرأة مصابة بالنزيف منذ اثنى عشر عاما ، وراحت تمس هدب ثوب المسيح لأنها اعتقدت أن مس ثوبه يشفيها ، فالتفت اليها قائلا :

« ثقى يا ابنة ، ايمانك قد شفاك ... » .

وقد شفيت المرأة .

وقد تبع المسيح أعميان وهما يلحان فى طلب الشفاء ، فلمس أعينهما قائلا :

« بحسب ايمانكما ليكن لكما ... » .

وقد كتب لهما الشفاء .

ولو تتبعنا آيات المسيح المتصلة بشفاء المرضى ، لتأكد لدينا ان للايحاء دخلا كبيرا ، ولا غرابة فى هذا ، فالايحاء نفسه لون من الخوارق يهبه الله لمن يشاء من عباده .



النتـــائج

لم تكن رســالة المسيح تهــدف الى اقامة دولة سياسية مسيحية ، ولكنها كانت تهدف الى ايجاد جيل تهضم عقليته تعاليم المسيح وتنفذ وصاياه التى ترفع من قيم الانسانية ، اذن فلا داعى لأن نناقش النتائج السياسية لرسالته ، لأنها لم توجد حيث لم يكن هناك هدف اليها .

وقد تكونت دولة مسيحية فى يوم من الأيام ، ولكن لم يكن وجودها استجابة لتعاليم المسيح ، بل استجابة للدوافع السياسية والمطامع الاستعمارية ، والواقع أن هــذه الدولة لم تكن حقيقة الا فى القرن الرابع فى عهد قسطنطين حين اعتنق المسيحية ، وعهد قسطنطين هذا تخلى تخليا كاملا عن تعاليم المسيح ، واستطاع أن يفسد الذوق العــام لوصاياه .. وتطورت ظروف السياسة وأصبحت الدولة المسيحية دولا كثيرة ، تفرقها الحدود الجغرافية ، وتجمعها العنصرية المسيحية ، وقد ظهر ذلك واضحا فى الحروب الصليبية ، التى وضعت نهايتها الحرب الكبرى عام ١٩١٤ — حين اندحرت جيوش المسلمين تحت راية الخلافة الاسلامية ، ووقعت معظم الدول المسلمة التى مرق زعماؤها حرصا على السلطان — فى قبضة الاستعمار الصليبى جزاء وفاقا ، وقال اللورد (اللنبى) والجيوش الصليبية يومئذ تحتل بيت المقدس — كلمته المشهورة :

الآن انتهت الحروب الصليبية !!..

واذا كانت رسالة المسيح لم تخلف وراءها نتائج سياسية يمكن عرضها ، فلا ريب أنها أحدثت انقلابا فى الميادين الأخلاقية ، ولا نكران فى أن هناك صلة وثيقة بين الميادين السياسية والميادين الأخلاقية ، واذا فسدت احداهما أو صلحت تأثرت بها الأخرى ، واضطراب الميادين السياسية فى كل زمن ، ليس مرجعه الا الى اعراض العاملين فيها عن المبادىء الأخلاقية القديمة !!..

وليس من الضرورى أيضا أن نناقش النتائج الأخلاقية التى خلفتها رسالة المسيح ، لأن مهمة المسيح كانت اقامة البناء الذى يعتمد على الدعائم القوية ، وليس عليه أن يلجىء الناس اليه ، وغرس البذور الطيبة فى الأرض دون أن يسأل عن الثمار ، ووضع المنهج القويم دون أن يحاسب على تجاهله والاعراض عنه ، والمسيح وضع أسسا صالحة للأخلاق تعتبر مثلا عليا تنهض بالانسانية ، وتستقر البشرية بها وتسعد ، وقد تجاوب معها البعض كأفراد مسيحيين ، وتخلفت عنها الدول المسيحية كدول لها كيانها ، لأنها اكتفت بالانتساب الى المسيحية دون أن تعمل لمدلولها ، ودون أن تتقيد بمبادئها وتعاليمها .

والأسس التى وضعها المسيح للمنهج الأخلاقى تكاد تتركز فى ثلاثة : الحب والسلام والتجرد ، وهذه الأسس وثيقة الصلة ، فالحب يمهد الطريق للسلام ويقوم على حمايته ، والتجرد يصوغ الانسان الكامل الذى يتجاوب مع الحب والسلام .

والحب فى نظر المسيح ليس معناه ــ فحسب ــ أن تحب من يحبك ، لأن موازين الأخلاق العادلة تحتم ذلك ، ولا أن تحب الناس جميعا للحب نفسه ، كخلق حميد يجب أن تتحلى به ، لأن النفس لا تأنف فى معظم الأحايين التحلى بالخلق الحميد ،

ولكن الحب فى نظر المسيح يرتقى الى مرتبة أسمى من هذا وذاك ، وهو أن تحب من يبغضك ، لأن هذا يكلفك نضالا بينك وبين نفسك ، لابد أن ينتهى بالانتصار عليها ، فتصل الى مرتبة الكمال :

« سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك — وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم — لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين — لأنه ان أحببتم الذى يحبونكم فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك — وان سلمتم على اخوانكم فقط فأى فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا — فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » . ٥ : متى

ولقد احتل السلام جانبا مهما فى رسالة المسيح ، حتى أنه لم يهتم بشىء اهتمامه بتدعيم بناء السلام ، فى الأرض المخضبة بدماء الحروب .. والسلام فى نظر المسيح ليس مجرد اعتزال الشر ، أو الصبر عن الأشرار ، لأن النفس يسهل عليها ذلك ، ولكن السلام فى نظره أسمى وأعظم ، وهو أن تقاوم الشر بالخير ، والقسوة بالرحمة :

« سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن — وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ..! ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ..! ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ..!.
٥ : متى

ولصانعى السلام عند المسيح منزلة عظيمة ، وحسبهم شرفا أنهم الى الله ينتمون ، جزاء نضالهم من أجل استقرار الأرض وسلامتها :

« طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » .
٥ : متى

والأساس الثالث والأخـــير الذى أقام المسيح عليه صرح الأخلاق ، هو التجرد الكلى فى سبيل خلاص النفس ، التجرد من الجسد لأنه ملتقى الشهوات ، والتجرد من الأرض لأنها ملتقى المطامع ، والتجرد من الدنيا بما تحمل من مال ، ومتاع ، لأنها ملتقى الشرور .

والمسيح حين يدعو الانسان الى التجرد من الجسد الفانى ، فانما يربطه بالروح الخالدة ، وحين يدعوه الى التجرد من الأرض الزائلة ، فانما يربطه بالسماء الباقية ، وحين يدعوه الى التجرد من الدنيا المتلاشية ، فانما يربطه بالله الذى لا يلحقه فناء :

« ويل للعالم الذى يحاول أن يرضى جسدا ليس سوى طين وسرقين » !!..
٨٠ : برنابا

« انك لأنت أشد جنونا من كل المجانين أيها الانسان الذى تعرف السماء بادراكك وتختار الأرض بيديك ، الذى تعرف الله بادراكك وتشتهى العالم بهواك » .
٧٧ : برنابا

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » .
١٦ : لوقا

ولقــد كان حريصا على أن يطبع تلاميــذه على التجرد ، ولم تكن هناك وسيلة للانخراط فى سلك التلمذة اليه سوى التجرد ، من المال والمتاع والوالدين والولد والمرأة ، ومن كل ما يتصل بالدنيا من قريب أو بعيد :

« لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم — ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحــذية ولا عصا ، لأن الفــاعل مستحق طعامه » . ١٠ : متى

« انه ليس أحــد ترك بيتــا أو والدين أو اخــوة أو امرأة أو أولادا من أجل ملكوت الله — الا ويأخذ فى هذا الزمان أضعافا كثيرة ، وفى الدهر الآتى الحياة الأبدية » . ١٨ : لوقا

والى جانب الأسس الثلاثة التى أقام عليهــا المسيح بناء الأخلاق ، احتلت المثل العليا مكانة مرموقة فى رسالته ، فالحياة من غير مثل عليا لا طعم لها ، والفرد من غير مثل عليا حيوان ناطق ، والجماعة من غير هذه المثل قطعان تعيش فى كنف الهمجية والفوضى ، كان حريصا على التمهيد لحياة لها طعم ، ولفرد لائق بالآدمية ، والجماعة يزينها جمال الخلق ، فجعل المثل العليا تحتل حيزا كبيرا من رسالته .

فالايثار ، وانكار الذات ، والوداعة والصفاء والعفــة ، وما اليها من المثل العليــا ، دعا اليهــا المسيح بقوة لتحتل مكانا فى نفوس الأفراد والجماعات والأمم :

« من يحب نفسه يهلكها ، ومن يبغض نفسه فى هذا العالم يحفظها الى حياة أبدية » .

« ليس لأحد حب أعظم من هذا ، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبـــائه » . ١٢ ، ١٥ : يوحنا

« اذا أراد أحد أن يكون أولا ، فيكون آخر الكل وخادما للكل » . ٩ : مرقس

ولقد حمـــل المسيح حملة شعواء على الانحلال الخلقى ، لأنه عقبة فى سبيل المثل العليا ، وعدو لها ، لا يلتقيان فى ميدان واحد ، ولا يعيشان فى مجمتع واحد ، حمل على الرياء والغرور ، والنفاق والمداهنة والمجون ، وما اليهـــا من الأمراض الاجتماعية التى تنحدر بالخلق الى الحضيض :

« ان الممقوت أن يحرم المرء الجســـد من الطعام ، ويملأ النفس كبرياء » . ١٠٧ : برنابا

« ان الله يحكم بالموت الأبدى على الخاطىء الذى يضحك لخطاياه ولا يبكى عليها » . ١٠٣ : برنابا

« ولكن من يترك التوبيخ محابيا بالوجوه ، ومداهنا أناسا خصوصيين ، فيجب تجنبـــه كأفعى مخوفة ، لأنه بالحقيقة يسم القلب البشرى » . ١٣٤ : برنابا

والى جانب هذا وذاك تركت رسالة المسيح فلسفة خاصة بالحياة ، تصلح منهاجا للراغبين فى حياة سليمة لا يكتنفها العبث والمجون ، بل يسودها الجد والاستقرار ــ ولهذه الفلسفة مهمة لا غنى للحياة عنها ، لأنها توضح مشكلاتها وتعـــالج أمورها ، وتهيمن على دفة شئونها ، ولأنها بمثابة المشاعل التى تضىء الطريق وتهدى السابلة :

« اذ تزعزع الأساس سقط البيت خرابا » . ٣٣ : برنابا

« لا تدينوا لكى لا تدانوا — لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » .

« لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير ، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » .

« اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم — لأن كل من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له » .
٧ : متى

« ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » .
١٦ : متى

كانت رسالة المسيح رسالة انسانية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، أقامت صرح الأخلاق على دعائم قوية من الحب والسلام ، وأرست قواعد المثل العليا فوق عروش من الاجلال والتقدير ، وفلسفت الحياة لتكون سلما للبشرية الى الرقى والسمو .

* * *

٨ - خَاتَمُ النَّبِيِّيْن



محمد عليه السلام

كانت رسالات الرسل ، ودعوات الأنبياء أشبه بالدورة البرلمانية لابد لها من نهاية ، والحياة نفسها ليست الا مرحلة ، لها بداية وسيكون لها نهاية ، ولو لم تكن كذلك لما أصبحت مستساغة فى نظر أحد من الناس ، اذ أن هذه المرحلة مرحلة غرس لابد أن يعقبها مرحلة حصاد ، والا كانت مرحلة الغرس من ضروب العبث .

والبشرية صورة مكبرة للطفل فى جميع أطواره ، وكما يتولى الأب طفله الى أن يصير رجلا يعتمد على نفسه ، كذلك الرسالات تولت تنمية البشرية الى أن بلغت مبلغ الرجولة ، وكانت الرسالة المحمدية نهاية هذه المراحل التى كان لابد منها كما يقول الرسول فى حديث الصحيحين عن أبى هريرة :

« ... ان مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين ... » .

ان لرسالة محمد امتيازا خاصا لأنها خاتمة الرسالات ، ولأنها تضمنت خلاصة الرسالات السابقة ، ولأنها مطلقة لا تتقيد بزمان أو مكان ، ومهيأة للهيمنة على البشرية الى النهاية ،

وكان ان القى على عاتقها أشق مهمة ، وبذلك كان لمحمد تقديره ، وجدارته بشرف الانتساب الى أولى العزم من الرسل .

وقد يطيب لكثير من المسلمين السذج أن يتعمقوا فى الغلو فى محمـد ، حتى اعتبروه أول البشر ، وأول الأنبياء والرسل ، وموجودا قبل أن يخلق الله العرش والكرسى واللوح المحفوظ ، وانه منح فى و لادته ووفاته امتيازا خاصا . ونسبوا اليه من الخوارق ما لا طاقة لانسان باحصائه ، ونحن نترفع عن مناقشة هـذه السفاسف لتفاهتها ، ولو عقل المتيمون بها لأيقنوا أنها تثير سخرية العقلاء المسلمين ، فضلا عن غـيرهم من الأجانب والمستشرقين المعنيين بدراسة شخصية محمد ، وكأنى به كان يدرى أن العقول الهزيلة ، قد تنسج حول شخصيته الترهات فحـذر من الغـلو فى شخصيته كما فى الحديث الصحيح :

« لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد الله ورسوله » .

الا يكفى محمدا ــ تقديرا له ــ أن الله ختم برسالته الرسـالات ليكون دينه مهيمنا على الدين كله ، وشرف دينه بنسبته اليه ، ومنحه معجزة خالدة وتعهـد بصيانتها ، وهى كتاب الله تعـالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ .

وعلى الرغم من أن محمـدا نفسه طالما كرر على لسانه القرآن : أنه بشر مثل كل البشر ، وأنه لم يكن بدعا من الرسل ، وأنه يبلغ ما يوحى اليه بأمانة ، ويجتهد رأيه فيما لم يوح به اليه فيصيب تارة ولا يصيب تارة أخـرى ــ برغم هـذا كله ، يصر المتهوسون من المسلمين على أنه فوق البشر ، وأن الوحى يحركه

ويصرفه وينطقه ، ولذلك عصم من الزلل فى القول والعمل ، ومعنى هذا أن محمدا لم يكن له شخصية مستقلة ، بل كان مجرد أداة تبلغ الناس ما يوحى اليه ، ولا ندرى لم عوتب فى بعض تصرفاته كما هو واضح فى الآيات القرآنية التى لا تحتمل التأويل ؟ ولم فرضت عليه استشارة أصحابه ، ما دام كل شيء كان بوحى ؟.

والبعض يبلغ فى تهوسه درجة الغباء ، فهو يعتبر أن محمدا كان يحفظ القرآن قبل أن ينزل به جبريل عليه ، وحجته أن محمدا كان يسبق لسانه بالقرآن جبريل ، ولذا نهاه الله : أن يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليه وحيه ..! وكأن هذا البعض لم يقرأ قوله تعالى : **« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » ..!.**

ويعتقد بعض آخر أن محمدا لم يدركه الموت ، وأنه حى فى قبره تعرض عليه أعمال أمته مرتين فى كل يوم ، وأن بعض العارفين التقوا به يقظة وصححوا عليه بعض الأحاديث ، وكأن هذا البعض لا يفرض وجودا لقوله تعالى :

« انك ميت وانهم ميتون » ..!!.

ان محمدا بشر ، وحسبه من التقدير أنه حمل الى البشرية أسمى رسالة تنهض بها ، وتضفى عليها الأمن والرفاهية والاستقرار ..!.

لقد سجل كتاب الله الملامح الرئيسية لشخصية محمد — صلوات الله عليه — ولدعوته ، وهذه الملامح وحدها كفيلة بأن تجعله صفوة الأنبياء والمرسلين ، بل وصفوة الخلق أجمعين ، وأن تجعل دعوته فى المقام الأسمى ..

حسبنا أن نتوقف هنيهات عند قوله تعالى : **« وانك لعلى خلق عظيم »** وقوله تعالى : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ..** فأى تكريم للرسول أبلغ من هذا التكريم ؟ ان القرآن الكريم أشار الى بعض المميزات السلوكية لبعض الرسل :

« ان ابراهيم لأواه حليم .. » .

« واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا .. » .

« واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد .. » .

ويقول القرآن عن التوراة : **« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » ..** وعن الانجيل : **« وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور » ..**

ثم ماذا بعـــد هذا ؟.

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ... » .

اذن فشخصية محمد ـــ صلوات الله عليه ـــ ليست فى حاجة الى الغلو منا ، بعد أن وضعها الله عز وجل فى المكان اللائق بها ..

* * *

قوة الشخصية

ليس هناك ريب ، فى أن محمدا أعظم شخصية فى التاريخ ، وليست العاطفة هى التى تجرفنا الى هذا القول ، وانما هو العدل الذى يتطلبه الرأى الحر ، ومحمد نفسه لم يرض أن يخير على اخوانه من الأنبياء والرسل ، وهذا هو سر عظمته ، لأن تواضع العظماء سر عظمتهم .

وقد عن للموتورين من المستشرقين ، وعصـــابات الزندقة والالحاد ، أن يطعنوا فى رسالته ، وفى الكتاب الذى أنزل عليه ، ولكنهم لم يجرؤوا أن يطعنوا فى قوة شخصيته ، أو يعثروا على ثغرة فيها .

كان الله يشرف على توجيهـــه ــ وليس فى هــذا شك ــ ولكن لم يمنـــع أن تكون له شخصية مستقلة تستلهم نجاحهـــا من تجاربها وذكائها الفطرى ، وتجتهد رأيها فى المسائل التى تركت له دون أن يتدخل الوحى فيها ..

ولقد تكاملت فى شخصيته كل عناصر الشخصية القوية ، من اتزان وصراحة وشجاعة ، وعزيمة وعاطفة ، وغيرها مما يسمو بالشخصية فوق مراتب الكمال .

ولم يكن عنصر الاتزان متوفرا فى شخصية محمد فحسب ، بل كان جزءا من كيانه قبل أن يكلف الرسالة ، ولم يختلف اثنان

من المؤرخين فى أنه كان قبل البعثة شخصية تجتذب من الناس تقديرها واحترامها ، وبعث الى البشرية ، فصقله الله بهذا العنصر ، ليواجه تمرد المتمردين ، وتعنت المتعنتين :

« فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير » . (الشورى : ١٥)

كان الاتزان فى شخصية محمد مزيجا من التريث والمنطق والحكمة والاعتزاز والثقة ، وأسمى ألوان الاتزان ما استطاع أن يستولى على العاطفة فى الظروف العصيبة التى يغلت فيها الزمام ، ولقد كان يتحدث فى أعصب الأحوال فيخيل الى الناس أن حديثه يقطر اتزانا ويسيل وقارا .

فى أحاديث الصحيحين : ان الرسول فى يوم حنين آثر ناسا فى القسمة ترغيبا أو تشجيعا لهم ، فقال رجل : فوالله ان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ..! وسمع الرسول فتغير وجهه ، ولكنه لم يخرجه عن دائرة الاتزان ، وقال : فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ثم قال : يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

والصراحة أيضا ، كانت جزءا من كيان شخصية محمد ، بل معينا له على السير بدعوته وسط العراقيل ، برغم أنوف الجبابرة من قريش ، كان عليه أن يدعو الى عبادة الله وتوحيده ، وأن يدعو الى مثل عليا تقوم على أساس من السمو العقلى والنفسى ، وهذه المهمة الشاقة كانت تتطلب منه أقوى ألوان

الصراحة ، حتى يندد بآلهة صماء لا تسمع ولا تتحرك ، ويندد بتقاليد بالية موروثة لا تمت الى العقل بسبب ، ويندد بعقلية العنجهية التى تأبى الا أن تزن الناس بموازين الحسب والنسب والقوة ، ولقد فعل محمد كل هذا فضرب أروع الأمثلة فى الصراحة .

ان الالتواء يتنافى مع الصراحة ، ولم يعرفه أسلوب محمد الالتواء ، لقد ساومته قريش على لسان أحب الناس اليه — عمه أبى طالب — ليترك دعوته ، ويطلب ما يشاء من الجاه والسلطان والمال ، فكان رده غاية فى الصراحة ، واخبر عمه أن حدوث المستحيل لن يثنيه عن عزيمته ، وحتى لو وضعوا القمر والشمس فى يديه فلن يتخلى عن دعوته .

وحاول لفيف من زعماء اليهود أن يساوموه ، لأنهم سادة قومهم ، فاذا أيدوا دعوته استجاب لهم اليهود جميعا ، ولكنهم طلبوا الثمن باهظا ، جزءا من النبوة يستغلونه اسوأ الاستغلال ، وكان رده أن النبوة ليست وسيلة لتحقيق المطامع والأهواء .

وحاول من قبل بنو عامر أن يساوموه — حين عرض نفسه على القبائل — بتأييده ليكون لهم الأمر من بعده اذا اظهره الله ، وكان رده غاية فى الصراحة ، كما كان غاية فى القوة أيضا :

« الأمر الى الله يضعه حيث يشاء » ..!!.

والشجاعة كانت قوة كامنة فى شخصية محمد ، ونحن حين نتعرض لتحليل عنصر الشجاعة فى الرسل انما نعنى بها قوة القلب وقوة الروح ، وهما البوتقتان اللتان تصهر فيهما الشجاعة الأدبية التى لا غنى لأصحاب الدعوات عنها .

وقد ركز الله فى شخصية محمد هذا اللون من الشجاعة ، والآيات القرآنية الأولى التى نزلت عليه كانت تأمره بانذار الناس بانتهاء دينهم وتقاليدهم الموروثة ، وأسلوب الانذار انما يتطلب الشجاعة الأدبية فى أقوى صورها ، ولقد سبق أسلوب الانذار أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، ليكون بمثابة ايقاظ لعقلية القوم من جهة ، وبمثابة صقل لعزيمة الداعية من جهة أخرى .

كان يواجه أقرب الناس اليه بالحقائق حتى لا يهتم بالمجاملة على حساب الدعوة ، وحتى لا تستغل القرابة فى صناعة الامتيازات والفروق التى هدمها الاسلام من أساسها .

فقد جاء فى الصحيحين أنه حين نزل قوله تعالى : ((**وأنذر عشيرتك الأقربين**)) جمع ذويه ووجه كلامه الى ألصق الناس به ، عمه العباس ، وصفية عمته ، وفاطمة بنته ، وجه اليهم الكلام قائلا : اعملوا .. لا أغنى عنكم من الله شيئا ..!.

وهذا لون من الشجاعة الأدبية ، بل هو أعظمها وأروعها !.

ولم يحرم محمد الشجاعة الجسمانية ، ولكن كان من خلفها شجاعة أدبية تحركها ، ولقد ثبت فى غزوتى أحد وحنين ومعه نفر قليل من أصحابه ، لأنه لم يكن من الكرامة أن يفر القائد من المعركة مهما دفع من ثمن .

وبلغه عزم قريش على مهاجمة المسلمين بالمدينة ــ بعد أحد بيوم ــ لاستئصال من بقى منهم ، فأمر أصحابه بحمل السلاح لملاقاة العدو خارج المدينة ، وكلهم مثخن بالجراح ، ولم يشفع لهم ما أصابهم فى معركة أحد من انهاك ، لأنه لم يكن

من الكرامة أن يغزى المسلمون فى ديارهم ، واستطاعت الشجاعة الأدبية أن تثنى العدو عن عزمه ، ليعود من حيث أتى .

جاء فى البخارى عن أنس : كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلة ، فخرجوا نحو الصوت ، فاستقبلهم النبى صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر — أى حققه — وهو على فرس لأبى طلحة ، عرى — أى بدون سرج — وفى عنقه السيف ، وهو يقول : « لم تراعوا ، لم تراعوا ... » أى : لا تخافوا ..

وقوة العزيمة لم تكن جزءا من كيان شخصية محمد فحسب ، بل كانت كيانها كله ، فهى روحها التى تشع فيها القوة ، وايمانها الذى يمدها بطاقة الاحتمال ، وقلبها الذى يبعث فيها الأمل ..! لقد هاجت الدنيا بأسرها عليه يوم قام بدعوته ، وفشل هياجها فى اثنائه عن عزيمته ، وحاول سادات قريش جس نبض عزيمته بالمساومة ، بالمال أو الجاه أو الملك ، وكانت صدمة لهم حين سخر منهم وأعلن أن حدوث المستحيل لن يلين عزيمته .

وحين أمر بالهجرة كان يعلم أن قريشا تتربص به الدوائر ، وتتأهب للتخلص منه ، ولكن عزيمته أثبتت أنها أصلب من أن تتأثر من قوى البغى كلها ، وقبيل معركة أحد ، استشار أصحابه فى القتال ، ورأى الشيوخ التريث ، كما رأى الشباب الذى يمثل الأغلبية القتال ، حتى يحرز الشرف الذى فاته فى معركة بدر ، وأذعن محمد لرأى الأغلبية ، ولم يكد يلبس معدات الحرب ، حتى فوجىء باذعان الشباب لرأى الشيوخ ، لما فيه من حزم وحكمة ، ولكن عزيمة محمد لم تكن لتستقر على أمر ثم تتقهقر عنه ، فأصر على الحرب ، وهو يقول :

« لا ينبغى لنبى اذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » ..!.

أما العاطفة فقد كانت فى شخصية محمد أبرز عناصرها ، والذى أرسل رحمة للعالمين ، لابد أن ينطوى قلبه على أرق العواطف وأسماها ، كان يرجو الله هداية الناس جميعا ، وفى مقدمتهم أعداؤه ، لأن عاطفته الرقيقة لم تكن تحتمل أن يلقى فى النار انسان من لحم ودم ، وكان أشوق ما يكون الى هداية ذوى رحمه — فقد نهى فى معركة بدر عن قتل بنى هاشم حتى تتاح لهم فرصة أخرى ، طمعا فى هدايتهم ، وأية قيمة لعاطفة لا تشمل أقرب الناس الى ذويها ؟.

روى الحاكم عن عمر : كان النبى صلى الله عليه وسلم يرى للعباس ما يرى الولد للوالد يعظمه ويفخمه ويبر قسمه ، وحين كان ابنه ابراهيم يجود بنفسه جعلت عيناه تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يا ابن عوف : انها رحمة ..!!.

وقد دفع محمد دفعا الى المعارك التى حدثت بينه وبين أعداء الدعوة ، ولكنه كان فى مجال الحروب ذا عاطفة تزيد على رقتها سموا ونبلا ، كان ينهى عن قتل الشيوخ والنساء والصبيان والمعتزلين الحرب من الرهبان ومن اليهم ، لأن ذلك يتنافى مع الرحمة والعدل ، وقد شاهد فى حادثة بنى قريظة أسيرا يسيل الدم من أنفه ، فقال للمسلم القابض عليه : لم صنعت به هذا ؟ أما كان السيف كفاية !! ثم قال : أحسنوا اسارهم ، وقيلوهم واسقوهم ، لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح ..!!.

وأنبل العواطف وأرقها ، ما أضفى منها على من نراهم أقل منا شأنا ، ففى حديث البخارى عن أبى هريرة : « لا يقل أحدكم : عبدى ، أمتى ، وليقل فتاى وفتاتى » وهذا أنس يقول كما جاء فى البخارى : « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى : أف ، ولا : لم صنعت ؟ ولا : ألا صنعت ؟ » .

والعاطفة حين تتجه الى الانسان لاغرابة فيها ، أما حين تتجه الى الحيوان الذى يملك احساسا ، ولكن عواطف الناس تتجاهله ، فانها تكون جديرة بالتقدير والعجب ، وقد كانت العاطفة نحو الحيوان فى نظر محمد أجدر بالاهتمام ، لأنه مخلوق ضعيف يملك الألم والأنين ولكنه لا يملك التعبير والشكوى . ! .

كان ينهى أن يعذب الحيوان بالنـــار ، وأن تصبر البهائم أو تتخذ غرضا ، واعتبر الانسان مستحقا لشكر الله ومغفرته اذا أحيا مخلوقا ذا كبد رطبة ، ومسئولا عن تهاونه فيه .

وكانت صلة محمد بأتباعه تترجمها الآية الكريمة :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

كان ينهى عن أن يبلغه أحد عن أصحابه شيئا قائلا : « انى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر » وكان فى حديث أبى داود عن عائشة **اذا بلغه عن الرجل الشىء لم يقل : ما بال فلان يقول ؟ ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون : كذا وكذا ..**

لقد كان محمد انسانا ذا عاطفة رقيقة ، تحتل منه كل جوانحه ، وتملك عليه كل احساساته ومشـــاعره ، ولم تفارقه عاطفته فى سلم أو حرب ، لأنه كان فى السلم والحرب آنسانا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ! .



طاقة الاحتمال

ان طاقة الاحتمال تكيف بمقدار ما وهب للرســـول من قلب ثابت وأعصاب متينة ، وثقة عميقة بالله ، ولقد كان محمد مثلا أعلى فى هذه المعانى الحيه ، ولا نحتاج الى دليل ، لأن ظروف دعوته كلها دليلنا الواضح الذى لا يحتمل جدلا .

لقد حمل أعباء الدعوة وحيدا لا يســـنده مع زوجه خديجة وصديقه أبى بكر الا نفر قليل من العبيد والمستضعفين ، وفى بيئة غير مستعدة حتى لمجرد التفكير فيما يخالف عقيدتها وتقاليدها .. ! واضطر الى نشرها سرا زهاء ثلاث ســـنوات ، لقيت خلالها من الارهاب والكبت ما لقيت ، وصارت بعد ذلك جهارا ليلقى أتباعها من الاضطهاد والبطش ما تنوء بحمله الجبال ..!!.

ووسط هالة من التهديد والوعيد ، غادرت الدعوة مكة الى المدينة ليواجهها معا ، ثلاث جبهات متعاونة على مقاومتها : قريش واليهود والمنافقون ، والجبهات جميعها لا تترك فرصة دون أن تشن عليها حرب أعصاب من نوع يهد أقوى القوى ، ودفعت الدعوة بعد ذلك دفعا الى مواجهة أعدائها فى حروب ضروس متوالية ، دون أن يكتب لها الهدوء شهرا واحدا .

ومع هذا كله ، ظل محمد خلال الثلاثة والعشرين عاما بمكة ويثرب ، ثابت الجنان ، لم يثن عزيمته وهن ، ولم يثبط همته يأس ،

ولم يزلزل ثقته بربه بغى ، ولم تكن هجرته من مكة يأسا من أهلها ، ولكنها كانت خطوة جريئة لفتح آفاق جديدة للدعوة ، ولم يحن قلبه الى استنزال الهلاك على أعدائه يأسا منهم ، بل رجاء أن يهديهم الله وأن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده .

لقد صاغه الله فى قالب من الثبات ، وطهره من اليأس ، وكان يربأ به أن يتأثر بتمادى المعارضين فى معارضتهم ، والسفهاء فى سفههم ، لأن تماديهم فى معارضتهم وسفههم ، لا يستطيع أن ينال من الدعوة ذرة واحدة :

« فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لو أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، انما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل . » ١٢ : هود

« فاستمسك بالذى أوحى اليك ، انك على صراط مستقيم » .
(الزخرف : ٤٣)

أما أعصاب محمد فقد كانت من فولاذ ، استطاعت أن تواجه تلك الحقبة العصيبة دون أن تهتز ، ولم تنفعل نفسه الا فى مواقف كانت تستلزم الثورة النفسية ، وكان يقابل أضخم الأحداث بابتسامة هادئة تنم عن أعصاب أثبت من الجبال .

كان يمر على آل ياسر وهم يعذبون .. فتنفذ أناتهم الى أعماق قلبه ، فلا يزيد على أن يقول : « صبرا آل ياسر .. ان موعدكم الجنة ..! » وكان يرد من القبائل أنذل رد ، ويلاقى من سفهاء قريش أسوأ لقاء ، فلا يزيد على أن يقول : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » ، وكان المنافقون بالمدينة يتآمرون

على الدعوة فى تبجح واستخفاف متحصنين بكلمتى الشهادة ، وطالما استعداه أصحابه عليهم حتى يضع حدا لمؤامراتهم ، ولكن الرسول كان يرفض بشدة حتى .. لا يتحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ..!!.

ولقد دبر هؤلاء المنافقون قصة الافك فى غزوة بنى المصطلق ، وهيأوا فرصة للألسنة القذرة أن تلوك عرضه ، فترمى زوجه السيدة عائشة بما يتعفف القلم عن تسطيره ، ولو كان غير محمد لأحدث فيهم مجزرة بشرية ، ولكن قوة أعصابه جعلته يتريث حتى ينجلى الأمر ، وينزل حكم الله فيه ، ولقد حدثت أحداث جسام أخرى ، كانت أعصابه تواجهها بهدوء ، لأنها أقوى من أن تهتز .

أما ثقة محمد العميقة بربه فقد كانت ممتزجة باحساساته ومشاعره ، كان ربه ملجأه الوحيد اذا حزبت الأمور ، وتحرجت المواقف ، وكانت ثقته به تفتح له آفاق الأمل ، وتكتسح كابوس اليأس ، فحين بلغ الأذى بأصحابه مبلغه قصدوه قائلين : « ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فأجابهم : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون !!..

ولقد اشتد التضييق عليه فى مكة ، فخرج الى الطائف ومعه زيد بن حارثة ، يلتمس التأييد من ثقيف ، فأغرى به الصبيان يتفننون فى ايذائه ، وفى هذه اللحظات العصيبة لم تتخل عنه ثقته العميقة بربه ، فعمد الى ظل شجرة واتجه اليه :

« اللهم اليــك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيــد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب ، فلا أبالى » !!..

وحين هم بالعودة الى مكة ، واعترض زيد قائلا : كيف تدخل عليهم مكة وهم أخرجوك ؟ فكان رده مزيجا من الثقة والاطمئنان :

« يا زيد ، ان الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وان الله ناصر دينه ومظهر نبيه » !!..

وحين لوح أبو بكر بالخطر المحــدق بهما فى الغــار أثناء الهجرة ، هدأ من روعه فى شجاعة الواثق المطمئن الى جانبه : « لا تحزن ان الله معنا !! » .

كان القرآن مثله الأعلى فى طاقــة الاحتمال ، القرآن الذى يوجهه الى أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا يستعجل لهم ..

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله .. ولقد جاءك من نبئى المرسلين » .

« وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهــدى ، فلا تكونن من الجاهلين » .

(الأنعام : ٣٤ ، ٣٥)

« واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين » . (يونس : ١٠٩)

« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » . (القلم : ٤٨ ، ٤٩)

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » . (المزمل : ١٠)

ولقد حمل محمد رسالته وهو أشد ما يكون ثقة بربه ، وخاض المعارك العديدة وهو أكثر ما يكون اطمئنانا الى نصرته ، كانت ثقته ايمانا امتزج باحساساته ، واطمئنانه عقيدة استقرت فى أعماق نفسه ، وبهذه الثقة وهذا الاطمئنان ، استطاع أن يشق لدعوته طريقا وسط الأشواك والعراقيل ، وأن يفتح لها آفاقا واسعة ، فى عالم مضطرب تتربع على عرشه قوى مختلفة من الوثنية والجهالة والفوضى !!..

* * *



ظروف الدعوة

كانت دعوة محمد فى أول مراحلها بمكة ، أشبه ببذور القيت فى أرض صخرية ، فلم تكن مكة مستعدة لتقبل دعوة جديدة تناقش العقول وتعتمد على المنطق ، وتحاول أن تصحح أوضاعا وتوقظ أذهانا ، وتهدم تقاليد .. لأنها كانت واقعة تحت نفوذ جاهلية غمرتها منذ قرون مضت ، فقد حملها اعتزازها بالآباء والأجداد على أن تعكف على عبادة حجارة صماء .. لأنها آلهة الآباء والأجداد ، وعلى تقديس التقاليد الفاسدة لأنها من مخلفات الآباء والأجداد أيضا ، وعلى اضطهاد صنف من الناس مجهول النسب ، أو مهمل الحسب ، أو مجرد من القوة .

ولقد اعترض دعوة محمد سادة مكة ، وأعلنوا الحرب عليها منذ اللحظة الأولى من حياتها ، فلم يكن من السهولة أن يسلموا فى آلهة آبائهم وأجدادهم ، أو يتنازلوا عن تقاليدهم التي كانت ميراثهم الوحيد ، ولم يكن من السهولة أن يدعوا أمثال محمد الأعزل من المال والجاه والقوة ينفرد بهذا الشرف ، ويحرموا منه ، وهم أصحاب الحول والطول ، ولم يكن هناك بد من أن يؤلفوا جبهة قوية لمقاومة هذه الدعوة التى من أخطر أهدافها المساواة بين السادة والعبيد !!..

ولقد كان لهذه الجبهة عدة أساليب ابتكرتها عقليتهم لمقاومة دعوة محمد والقضاء عليها ، ومن هذه الأساليب السخرية

من محمد والتهكم عليه ، وأسلوب التعجيز ، اذ طلبوا منه ما أملاه عليهم الخيال الواسع ، تهربا من المنطق ، وهذه وسيلة العجزة ولا يملكون غيرها :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » . (الاسراء : ٩٠ — ٩٣)

وتلا هذين الأسلوبين ، اسلوب هو أقرب الى التخبط والسفه والحمق ، ولم يرد على أسلوبهم رجاء الاقناع ، وانما تهكما عليهم وسخرية من عقلياتهم :

« واذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ان اتبع الا ما يوحى الى ، انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ؟ » . (يونس : ١٥ ، ١٦)

وفشلت كل أساليب الجبهة المتآمرة بمكة ، فاتجهت الى المقاومة المادية ، واتخذت هدفها المستضعفين الذين استجابوا لمحمد ، فأذاقتهم الوانا من التنكيل ، اتسمت بروح الوحشية والنذالة ، وتجردت من كل معانى الرجولة والعفة والانسانية .

ولقد بلغت قسوة الجبهة التى تزعمها أمثال أبى جهل

وأبى لهب والوليد بن المغيرة ، وعتبة وشيبة ، وأمية وأبى ابنى خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، ومن اليهم من جبابرة قريش — بلغت قسوة هذه الجبهة من الوحشية درجة تعجز الأقلام عن وصفها ، ولا تحتمل الأعصاب مجرد ذكرها ، وحسبك أن المسلم كان من شدة التعذيب يشيرون له الى الدواب المارة أمامه ويسألونه : من هذه ؟ فيجيب : هذه آلهتى !!..

ولك أن تتصور التعذيب الذى يصل بالانسان الى درجة الذهول والهذيان ، لتدرك أن اتباع الدعوة اجتازوا امتحانا قاسيا ، ولقد مر هذا الامتحان بأتباع الدعوات من قبلهم ، ولقد حدث لبعضهم ما هو أشبه بالمجازر البشرية ، ولكن الامتحان الذى اجتازه أتباع محمد كان من لون لا مثيل له ، فالانسان يمكنه أن يحتمل الموت فى لحظات خاطفة يستريح بعدها ، وحياة كل منا معرضة لحوادث عاجلة قد تنهيها فى اقل من لمحة ، ومهما بلغت قسوة هذه الحوادث فانها تمر بالمرء أسرع من البرق ، ولكن حين يتعرض الانسان لأى لون من التعذيب ساعات ، فانه يكون جديرا بأن يوضع فى موازين البطولة النادرة ، ولقد قاسى أتباع دعوة محمد ألوانا من التعذيب — لا لونا واحدا ، وظلوا يتحملونها — لا ساعات فحسب ، بل أياما وأسابيع وشهورا وأعواما ، واستطاع التعذيب أن ينال من اجسادهم فمزقها ، وأن ينال من عقولهم فصيرها مزيجا من الذهول والهذيان ، وأنطقها عبارات أرضت نفوس الجلادين لأنهم ظنوها نجاحا لقسوتهم ، ولكن التعذيب لم يستطع أن ينال من قلوب المؤمنين التى ظلت ثابتة مطمئنة بالايمان ، وما حدث من بعضهم من عبارات توحى بالارتداد ، قد حدث فى حالات من الذهول وفقدان الوعى ، ولذا تجاوز الله عنهم لأنهم اكرهوا وقلوبهم مطمئنة بالايمان !!..

والمحن تعتبر دعامة من دعائم العقيدة ، لأنها بمثابة صقل لعزائم أتباعها واختبار لطاقات احتمالهم ، ولذلك ظلت وستظل ، الى الأبد ، سنة من سنن الدعوات فى هذه الحياة :

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين)) . (العنكبوت : ٢ ، ٣)

وانتقلت الدعوة من مكة بعد ثلاث عشرة سنة ، لتواجه فى يثرب جبهتين تركزت فيهما كل قوى المقاومة ، وذلك بالاضافة الى جبهة قريش التى ظلت مناوشتها من مكة وأطرافها تلاحقها بضع سنوات .

كانت الجبهـــة الأولى تتألف من المنـــافقين تحت زعامة عبد الله بن أبى ، وهذه الجبهة رأت أن أفتك سلاح لمقاومة الدعوة هو النفاق ، ولذلك احترفته وأتقنته ، ولقيت الدعوة منها ألوانا من الكيد بشتى الأساليب ، ففى وقت السلم تنشب مخالب الوقيعة بين الأوس والخزرج تارة ، وبين المهاجرين والأنصار تارة أخرى ، وفى وقت الحرب تشن حرب الأعصاب ، لتثبط الهمم ، وتخذل العزائم .

أما الجبهـــة الثانيـــة فهم اليهود ، وكانت قيادتهم تتركز فى ثلاث فرق من أكبر طوائفهم : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . وهؤلاء جميعا اتفقوا على هدم الدعوة منذ اللحظة التى حلت فيها بيثرب ، وبرغم أن محمدا لم يكد يصـــل المدينة حتى وادع يهود على ألا يكونوا لأعدائه عليه ، والا يكون لأعدائهم عليهم ـــ الا أنه كان من العسير عليهم أن يخرجوا عن طبيعتهم من الغدر والخسة ونقض العهود !!..

كانت وسائلهم فى مكافحة الدعوة مزيجا من الدناءة والجبن ، فهم تارة عيون على المسلمين لحساب قريش ، وتارة أخرى مروجون للاشاعات أو مختلقون للافك ، وتارة ثالثة مناوشون ومشاغبون ومشعلون للدسائس والفتن ، أما العنت والتمرد والخبث ، فقد كانوا متزودين بأكبر قسط من هذه الألوان ، انهم يشككون فى العقيدة الجديدة ، فيوصى بعضهم بعضا بألا يؤمنوا الا لمن تبع دينهم ، أو بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره ، وراحوا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وراحوا يسألون الرسول أسئلة لا يقصدون منها الا التشويش ، ويجادلونه فى مسائل لا يهدفون من وراء الجدل فيها الا الى تضياع الوقت ، ولقد لقيت الدعوة من اليهود ، ما يعجز القلم عن حصره ووصفه ، ولكن الرسول كان يتعزى بما لقيه أخوه موسى منهم من قبل ، وأثبت أن طاقة احتماله أكبر من أن تتأثر أو تتلاشى أمام شراذم تحترف الشغب ، وتأنف حياة الهدوء والاستقرار ، وتتعفف عن خلق العدل والورع والانصاف !!..

ولم تكن ظروف دعوة محمد بحاجة الى الخوارق الملموسة ، لأنها مؤقتة يلمسها قدر من الناس ، ودعوة محمد انما هى خالدة ومقدر لها أن تصل الى البشر جميعا فى كل زمان ومكان ، ولذا كانت معجزتها الخالدة التى توائمها وتكافئها هى كتاب الله ، وهذا واضح لا يحتاج الى دليل :

((بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا الا الظالمون * وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه قل : انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)) .

(العنكبوت : ٤٩ ، ٥٠)

لم يكن للخوارق فى دعوة محمد أى معنى لأنها قائمة على المنطق والاقناع ، ولأن الخوارق لم تكن وسيلة للاقناع فى يوم من الأيام :

((وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بهــا الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها)) . (النسـاء : ٥٩)

ولن تكون أيضا وسيلة للايمان :

((ولو أنا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبــلا ، ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)) . (الأنعام : ١١١)

((ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقــال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين * وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون)) . (الأنعام : ٧ ـــ ٩)

أية قيمة اليوم لمعجزات موسى وعيسى وابراهيم وغيرهم ، لقــد انتهى زمانها ، وأدت مهمتها وأصبحت فى ذمة التــاريخ ، ونحن لا ننكر أن تكون هناك آيات خوارق فى حياة محمد ولكنا نود أن نقول : كتاب الله معجزة خالدة ، ستظل الى الأبد تتحــدى العقول والفلسفة والمــادية ، وستظل الى الأبد كذلك وســيلة للاقناع ، وشعاعا يضيء طريق الحق للمضطربين الحيارى !!..

* * *

النتـــــائج

كانت رسالة محمد بمثابة انقـلاب حول مجرى التاريخ ، فالأمة العربية التى ظلت قرونا طويلة مغمورة فى صحراء قاحلة ، ليست لحياتهـا مغزى ، لم يكن مقدرا لهـا أن تدخل التـاريخ لولا رسالة محمد التى هذبتها ودفعتها الى التاريخ دفعا لتحتل مكانة مرموقة بين دفتيه ، ولتستطيع فيما بعد ، أن ترث دولتى الفرس والرومان اللتين كانتا تسيطران على العـالم بأسره ، وتتحكمان فيه تحكما قويا ، لتقيم فوق أرضهما صرح المثل العليا ، وتمنحهما الحياة الكريمة !!.

واستطاعت رسالة محمد أن تضع أسس دولة مسلمة فتية لها وضعها وكيانها ، ولم تسبقها فى هذا المضمار رسالة من رسالات الرسل التى كانت محدودة الزمان والمكان والهدف .

ومهمة الدولة فى نظر الاسلام ، هى حماية الدعوة وحماية الوطن ، وتهيئة حياة طيبة آمنة لرعاياها ، ولذا كانت القوة لها بمثـابة الروح للجسـد ، لأنهـا لا تقوى على أن تقوم بمهمتها الا اذا كانت مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة .

واستطاعت رسالة محمد أن تخلق شعبا حرا يعتنق المثل العليا ، والاسلام يعتبر الحرية حقا طبيعيا مقدسا للشعب ، لا يخدش ولا يهضم ، وليست منحة من الحاكم ، يمنحها ان شاء ، ويسلبها ان أراد ، يتشدق بهـا حين يمنحها ، ويتشدق لهـا

حين يسلبها ويمنعها .. وليس معنى الحرية فى نظر الاسلام ثرثرة وشغبا وفوضى لاستهلاك الوقت واستنفاد الطاقة ، وانما هى وسيلة مجردة عن الهوى لاقرار الحق ، تعتمد على أصلين ثابتين ، هما العقيدة والشهامة ، وقد أشار الى هذا المعنى حديث الصحيحين الذى رواه عبادة بن الصامت :

« بايعنا رسول الله — على أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » .

وتركت رسالة محمد للعالم دستورا شاملا ، كتب له الخلود الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومهمة هذا الدستور تنظم حياة الناس على أساس من العدالة والمساواة ، ولقد تعمق الاسلام فى هذين المعنيين حتى بلغ بهما درجة تثير الدهشة .

ولم يفت الاسلام أن ينظم علاقة الحاكم بالمحكوم ، ويوضح حقوق كليهما على أساس من العدالة الخالصة ، فعلى المحكوم أن يستقيم ويعمل فى حدود امكانياته ، وأن يسمع ويطيع فى حدود استطاعته — ما لم يؤمر بمعصية — وليس من حقه أن ينازع الأمر أهله ، الا اذا رأى كفرا بواحا ، واذا أطلت الفتنة بقرونها ، فعليه أن يلزم بيته ، وعلى الحاكم أن يستقيم ويعدل ويسوى بين رعيته وأن يعمل ما وسعه الجهد فى النهوض بالوطن :

« ستكون أثرة وأمور تنكرونها — قالوا : يا رسول الله ! فما تأمرنا ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم ، وتسألون الله الذى لكم » !!..

« السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » !!..

وقال عبادة بن الصامت : دعانا النبى ـــ صلوات الله عليه ـــ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا ، أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، والا ننازع الأمر أهله « الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » !!..

وقد سأل حذيفة بن اليمان الرسول عما يأمره ، أن أدرك ظهور الفتن والاضطرابات وتعدد الفرق فقال له : تلزم جماعة المسلمين وامامهم ، فقال : فان لم يكن لهم جماعة ولا امام ؟ فقال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك !!.

روى الأحاديث كلها الشيخان

ولم يفت الاسلام أن ينظم سياسة الحكم على أساس من الشورى والتناصح ، وضرب أروع الأمثلة لتأييد هذه السياسة حين تضمن دستوره مادة للشورى ((**وشاورهم فى الأمر**)) وأخرى للنصيحة : ((**الدين النصيحة**)) ـــ ولو ضن الحاكم بالشورى لكان دكتاتوريا مستبدا ، ولو ضن المحكوم بالنصيحة لكان جبانا هزيلا .

ان رسالة محمد خلقت أمة عربية من جديد بعد أن حررت عقولها ونفوسها وأرواحها ، ووضعت أسسا متينة لدولة فتية احتلت فيما بعد مكانا مرموقا فى التاريخ ، وخلقت شعبا بعد أن صقلته بالتضحية والفدائية ، ومنحت الحياة دستورا شاملا يكفل لها نظامها واستقرارها ، وتركت بعد ذلك ـــ كما تركت أخواتها من قبل ـــ عبرة خالدة . أصبحت فيما بعد سنة مطردة من سنن الحياة التى لا تبديل لها !!..

ولكن : وما أمر لكن هذه ..!.

أين نحن المسلمين اليوم من الاسلام ، وأين الاسلام منا ؟.
أرجو ألا نتهم باليأس حين نقول :

ان بعد ما بيننا اليوم وبين الاسلام ، أو بعد ما بين الاسلام وبيننا هو بعد ما بين السماء والأرض ، ان الصلة التى تربطنا بالاسلام لم تعد سوى صلة هامشية لا أكثر ، أما الصلة الوثيقة بالاسلام ، والمفروض أن تتوافر لدينا نحن المسلمين ، فقد أصبحت فى خبر كان .. ويوم كانت هذه الصلة الوثيقة بالاسلام متوافرة فى أسلافنا الصالحين كان الاسلام والمسلمون بخير ، كان للاسلام كلمة تسمع ، وللدولة المسلمة وزن يحسب له حساب ..

ثم نكست الأمة المسلمة على رؤوسها بعد أن فرطت فى جنب الله ، ونبذت الاسلام خلف ظهورها ، وأصبحت دويلات هزيلة ، بل لقيمات سائغـــة تسيل لهـــا لعـــاب الفئران والقطاط فضلا عن السباع والذئاب ..

من كان يظن أنه حتى البوذية أصبحت تعلن حرب الابادة على الأقليات المسلمة فى دولها ، فى بورما وتايلاند وكمبوديا ، وليست أحداث بورما عنا ببعيد ، يوم طردت وشردت عشرات الألوف من المسلمين ، ألجأتهم الى بنجلاديش ليواجهوا الجـــوع والعرى والضياع ، والشعوب المسلمة التى بلغ تعدادها ثمانمائة مليون مسلم أو يزيدون ، فى غفلة عن هذا ، كأنما أصيبت بالبكم والصمم والعمى ، والتجرد من المشاعر والأحاسيس ..

وفى المقابل : هل بلغك أى نبأ عن اضطهاد أقلية غير مسلمة

فى ديار المسلمين ؟ لو حدث هذا مرة واحدة لقامت قيامة الدنيا فى أمريكا ، وفى أوربا الصليبية ..!!.

بل على العكس .. فالأقليات المسيحية مدللة فى ديار المسلمين تدليلا لا حدود له ، وقد أصبحت تتمتع بامتيازات لم تكن تحلم بها حتى فى عهود الاحتلال الصليبى الأوربى لديار المسلمين ، وليس عجيبا — فحسب — أن يكون عدد الكنائس مثلا يغطى أضعاف أضعاف عدد الأقلية المسيحية فى دولة من الدول ، بل ما هو مثير للدهشة والغرابة أن توجد بضع كنائس فى دويلة خليجية ليس بها مواطن مسيحى واحد ، وانما من أجل عيون بضع عشرات من الموظفين المسيحيين ، يمكن الاستغناء عن خدماتهم بأفضل منهم عشرات المرات من الشباب المسلم ، ما دام يفترض وجودهم بناء الكنائس من أموال المسلمين ..

ومن المعروف أن الاسلام يترك الأقليات الكتابية وعقائدهم ولكن فى حدود بيعهم وكنائسهم ، وليس العجيب — فحسب — أن تفتح وسائل الاعلام أبوابها لنشر هذه العقائد فى المناسبات العديدة ، بل ما هو مثير للدهشة والغرابة أن توجد محطة اذاعة للانجيل فى دولة مسلمة ، زارها بابا الكنيسة الأرذوثوكية منذ عامين ، وكان من قبيل التكريم له التصريح ببناء كنيسة جديدة فى كل مدينة يزورها ..

وحدث ولا حرج اليوم عما حدث ويحدث وسيحدث فى دولة مسلمة ، بل هى اليوم أكبر دولة مسلمة هى أندونيسيا ، فالصليبية — تحت رعاية أمريكا — تسير فيها بخطوات واسعة ، وقد أصبح لها من النفوذ أضعاف ما كان للشيوعية من نفوذ فى عهد سوكارنو ..

ونحن حين نقــول : لابد من الرجوع الى الله ، لكى ننقــذ للاسلام ما يمكن انقاذه ، وللابقاء على ما يمكن الابقاء عليه من ماء وجوه الشعوب المسلمة .. لا نلقى الكلام على عواهنه ، فلا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح بها سلفها ، وما صلح هؤلاء السلف الا بارتباطهم بالله سبحانه ، وعضهم بالنواجذ على شريعته ..

والبحث عن العلل أولا .. العــلل التى أدت بالاســلام الى أن يصبح فى ديار المسلمين كما مهملا ، والتى أدت بالشعوب المسلمة الى أن تكون فى المؤخرة اليوم ، ومن الأمور المسلمات أن هذه العلل نبتت فى جسد الأمة المسلمة ولم تأتها من خارجها ، والذى أضــاع الأندلس الاسلاميــة ليس ســوى مطامع الملوك وأهوائهم ، وسكوت العلماء واستسلام الشعب ، والذى طوح الخلافة الاسلامية آخر معقل للاسلام والمسلمين ليس ســوى انحراف السلطة ونفاق العلماء وسلبية الشعب ، والتاريخ اليوم يعيد نفسه على المسار القريب والبعيد ، فهــذه الأمة المسلمة المترامية الأطراف تحكمها أنظمة عميلة لا هم لهــا الا أن تعيش للسلطة وتعيش السلطة لها ، ولن تسمح للاسلام أن تقوم له قائمة ، حتى لا يقف عقبة فى سبيل مطامعها وأهوائها ، وستظل مطمئنة ما دامت تجد فى علماء الدين من يدآهن ويتزلف ، وتــجد فى الشعوب من يهتف ويصفق ..!!.

***

تحصیل

تحصـــــيل

١ ــ حين فكرت فى هذا البحث حرصت على الايجاز المركز ليجىء كتابا متوسطا ، يتناوله القارىء ويستخلص معانيه فى أقل وقت ممكن ، ولا يمـــكن لكتاب متوســـط أن يستوعب بحـــوثا عن خمسة من أولى العزم من الرسل ، الا اذا كان رائده الايجاز والتركيز ، وهذه مهمة شاقة ومضنية للذهن ، وتحتاج الى وقت كبير .

٢ ــ لم أعتمد فى هذا البحث الا المراجع التى هى فوق مرتبة الشك ــ كالقرآن الكريم ، والأحاديث الصحاح ــ والتى مما تطمئن اليها النفس .. وقد استعنت بالكتاب المقدس ، ولكن فيما يمس الفلسفة الأخلاقية والجوانب الاجتماعية ، كما استعنت بالتاريخ ولكن فى حيطة وحذر .

٣ ــ اهتممت فى هذا البحث بطريقة التحليل لابراز العناصر الرئيسية الخمسة للشخصية القوية فى أولى العـــزم : الاتزان والصراحة والشجاعة والعزيمة والعاطفة ، والعنـــاصر الاضافية الأخرى التى تتوافر فى بعضهم ــ كما اهتممت بتكييف طاقة الاحتمال فى أولى العزم ، والتى ترتكز على دعائم ثلاث : قوة القلب ، وقوة الأعصاب ، وقوة الثقة بالله .

واهتممت ثالثا : بأثر دعوات أولى العزم فى البيئات الأربع :

الدينية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية ، وكيف يمكن الانتفاع بهديها ودروسها وعبرها .

واهتممت رابعـا : بتكييف ظروف دعوات أولى العـزم التى أحاطت بها ، من عسر ويسر ، ورخاء وشدة ، وحال أتباعها وما لحقهم من اضطهاد فى سبيل عقيدتهم ، وحال أعدائها وما سيطر على عقليتهم من حمق وتمرد وعناد .

٤ ــ وقفت فى هذا البحث عند نصوص الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، دون حاجة الى تأويل ، كما ابتعدت جهد المستطاع عن المسائل الجدلية التى تثير المعارك فى غير جدوى ، وتشوش على الأذهان لتضيع فى ضوضائها المعانى الحية ..!.

٥ ــ لم أعتبر المعجزات بالنسبة لأولى العزم من الرسل ، أساسا يعتمد عليه فى تقدير شخصية الرسول وتكييفها ، لأن الثابت المتواتر منها كان ــ فحسب ــ ضرورة استدعتها ظروف الرسالة لتأييد الرسول ــ لا لتقديره واكرامه ، وليس مفروضا علينـا أن نقبل معجزات اقتبست من التأويل ، أو أخذت عن الأحاديث الضعيفة ، أو مما صاغها الجهل والتلفيق والتعصب .

٦ ــ لم أجنح فى هذا البحث الى التفريق بين أولى العزم والتفضيل بينهم ، لأن الهدف لم يكن رغبة المقارنة ، بل تقديم صور صادقة عن خمسة من الرسل ، تربطهم جميعـا مشقة المهمة ، وقـوة الشخصية ، وقوة الاحتمال ، وعن خمس دعوات تهـدف الى غايات واحدة ، وترتكز على دعامات واحدة .

٧ ــ وقد راعيت فى الأسلوب السـهولة ، وفى الألفـاظ

البساطة ، فليس من العقل ، أن نجعل من بحوثنا معجما لغويا تتصارع فيه الألفاظ ، ولا مقامات تتعقد فيها الأساليب ، لأن وقت القارىء أكرم لدينا من أن يضيع فى تصارع الألفاظ وتعقد الأساليب .

٨ — كان من المعانى البارزة فى حياة أولى العزم من الرسل ، أن الأذى بالنسبة لهم كان جزءا من تكوينهم الشخصى ، والمتصدون لقيادة الدعوات لابد أن يكون الأذى من ضروريات حياتهم ، وليس هذا الأذى اختبارا لايمانهم ، لأن ايمانهم أكبر من أن يختبر ، ولكن ليجعل منهم قدوة لأتباعهم ، والله عز وجل كتب على نفسه ألا يتخلى عنهم ، فاذا بلغ بهم اليأس درجة الخطر على العقائد تداركهم بنصره :

((انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد)) .

((حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين)) ..

٩ — وكان من أبرز المعانى فى حياة الدعوات وصولها الى نتيجة حتمية ، وهى تأييد الحق وانهيار الباطل ، وهذه النتيجة أشبه بالنظرية الرياضية ، والسنة من سنن الحياة ، لا يعتريها تبديل ولا تحويل ، فالحياة منذ أن كانت الى يومنا هذا ، والى أن تقع السماء على الأرض ، انما ترقص على دوامة من الصراع بين الحق والباطل ، وللحق أشياع يناصرونه ويؤازرونه ، وللباطل أيضا أشياع يسندونه ويتفانون فى الذود عنه ، وقد يختفى الحق قليلا كما قد يتطاول الباطل قليلا ، ولكن الغلبة فى النهاية للحق ، لأنه أشبه ما يكون بالأجسام الخفيفة

التى من طبيعتها الطفو فوق الماء ، فاذا ضغط عليها واختفت قليلا تحت طبقات الماء .. لابد لها من الظهور حتى تعود الى طبيعتها :

« ... كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع النـــاس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ... » .



ثم ماذا ؟

● أن فكرة الدراسة التحليليــة لشخصــيات أولى العزم من الرســل : نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمــد ـــ صلوات الله وســلامه عليهم ـــ لم تبــدأ عندى من فراغ ، لأنها وردت على ذهنى ، ونحن خلف أسوار الباستيل المصرى « السجن الحربى » فى محنة الاخوان المسلمين ، فى عام ١٩٥٤ م ، وما بعده ، والواقع ، انها محنة الاسلام يومئذ ، ممثلة فى دعوة الاخوان المسلمين ..

كان أبرز ما فى حيــاة دعوات هؤلاء الرسل ، هو طاقة الاحتمال ، مــع مواصلة الجهــاد والكفاح ضــد قوى الشر ، ثم الاصرار على التضحية والبذل والفداء ، حتى تقوم لدعوات الله قائمة فى الأرض .. اذن ، فأصحاب الدعوات يجب ان يدركوا أن أولى العزم من الرسل ، لا ينبغى أن يكونوا قدوة لهم فى طاقة الاحتمال المجردة ـــ فحسب ـــ بل قــدوة لهم أيضــا فى الصبر على الكفاح ..

ومن هنـا لم يكن الهدف ــ يومئذ ــ من هــذه الدراسة عن شخصيات أولى العزم من الرسل ، مجرد التسلية التى تعين على احتمال المحنة التى كنا نعيشها .. هذه الفكرة لم تكن يومئذ واردة على الاطلاق ، وانما الذى كان وارداً ، هو أن تكون هذه الدراسة منطلقـا الى مواصلة الكفاح ، مع احتمال كل الوان العنت ، والارهاق المادى والمعنوى على السواء ..

* * *

● والذى لا جدال فيه :

ان محنة الاسـلام ودعاته لم تتوقف ، ولم تنته بعـد ، ولن تنتهى الى أن تقوم الساعة ، وهذه سنة الله فى الحيـاة ، ولن تجد لسنته تحويلا .. ولقد شاء الله ــ سبحانه ــ أن تكون رسالة الاسـلام خاتمة الرسالات ، ورسالة عامة الى البشرية فى كل زمان ومكان ، ومن هنا تبرز أهميتها ، ومدى المسئولية الملقاة على عاتق أتباعها ..

والذى لا جدال فيه أيضا :

ان محنة الاسلام اليوم ، أشد شراسة منها بالأمس البعيد .. لماذا ؟ لأن الاسلام بالأمس البعيد ، كان يواجه من خارجه .. من أعدائه ، اذن فقد كان الاسـلام يناضل فى جبهـة واحدة ، أما اليوم ، فهو يواجه من خارجه ومن داخله ، من خصـومه ، ومن بعض المنتمين اليه بحكم شهادات مواليدهم ..

هذه ناحية :

وناحية ثانية : ان الجهـــاد بالأمس البعيـــد ــ ضد أعداء الاسلام ــ كان يعيش فى ضمائر المسلمين ، فرض عين اذا اعتدى على المسلمين أو أرض المســـلمين ، وفرض كفاية لنشر الدعوة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربهـــا .. أما الجهـــاد اليوم بشطريه ، فهو ليس ــ فحسب ــ مجمدا أو متوقفا ، بل هو ملغى من أذهان المسلمين حكومات وشعوبا ، فضلا عن ضمائرهم ..

بل ما هو اشد مرارة على النفس ، أن تعطيل الجهـــاد ضد أعداء الاســـلام ، قد حل اليوم مكانه القتال بين المسلمين أنفسهم ، ما حدث بالأمس القريب فى دولة الباكستان حتى تم شطرها شطرين ، والقتـــال الدائر اليوم فى المشرق فى الخليج بين ايران والعراق ، وفى المغرب بين دولة المغرب ، والبوليساريو ، بالاضافة الى ما يجرى فى سوريا ، وفى العـــراق ، وفى اليمن الجنوبية ، من عمليات التصفية الجسدية لشعوب هـــذه الدول وغـــيرها ، وكأن أسلحة المسلمين التى تشترى من أقواتهم ، لا تشهر الا عليهم ، لتفتك بهم ..

وناحية ثالثـــة : ان الشعوب المسلمة اليوم ، قد أصبحت مغلوبة على أمرها ، تجاه أنظمة علمانية ديكتاتورية ، تصر على عزل الاسلام عن حيـــاة هـــذه الشعوب المغلوبة على أمرها ، كما تصر على التبعيـــة المهينة ، للشرق الالحادى ، أو الغرب

الصليبى ، والولاء المطلق لهمـــا ، وكلاهما عدو للاســـلام بالغ العـــداوة ..

والمفروض أن علماء الدين يجب أن يكونوا مع هذه الشعوب المسلمة المغلوبة على أمرها ، للأخذ بيدها ، لكن هؤلاء العلماء اليوم فى واد والاسلام وشعوبه وقضاياه فى واد آخر .. فلم يصبحوا ورثة الأنبياء ، ولا أمناء الرسل على العباد ..

وناحية رابعة أخيرة :

ان الاسلام الذى نعايشه ، ليس هو الاسلام الذى رضيه الله لعباده دينا ، فنحن نعايش شكلا لا يمت الى حقيقة الاسلام بصلة ، ثم ان مسلمى اليوم ، ليسوا هم المسلمين المؤهلين لخير أمة أخرجت للناس ..

ومحنة الاسلام اليوم ، هى فى المسلمين أنفسهم ، هؤلاء الذين تواكلوا ، وارتدوا رداء السلبية المطلقة ، لأنهم جهلوا حقيقة الاســـلام .. لقد توقعوا من هـــذا الدين ــ كما يقول الشهيد « سيد قطب » فى مؤلفه « هذا الدين » توقعوا منه ــ ما دام منزلا من عند الله ــ أن يعمل فى حياة البشر بطريقة سحرية خارقة ، غامضة الأسباب .. والا أصيبوا بخيبة أمل ، ومركز هذا الخطأ ، هو عدم ادراكهم هذا الدين وطريقته ..

الى أن يقول رحمه الله :

« ان هذا الدين منهج الهى للحيـــاة البشرية ، يتم تحقيقه فى حياة البشر ، بجهـــد البشر انفسهم : **« والذين جاهدوا فينـــا لنهدينهم سبلنا »** هكذا شاء الله ــ سبحانه ــ أن يتم تحقيق منهجه للحيـــاة البشرية عن طريق الجهـــد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية : **« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »** .



كلمات أخيرة

حين راودتنى فكرة هذا البحث ، لم أكن أفكر فى أن أجعل من حياة أولى العزم ودعواتهم ، قصصا للتسلية وقتل أوقات الفراغ ، لأنى أكون حينئذ قد أضعت عاما من عمرى سدى ، وعملت على ضياع جزء من وقت القارىء فى غير جدوى ..!!.

ولكنى حرصت على أن أجعل من حياة أولى العزم من الرسل ودعواتهم بحثا تحليليا مستفيضا ، يلتمس القارىء المثقف منه النماذج الطيبة التى تتمثل فيها شخصياتهم ، والمعانى الحية التى تتجلى فى فلسفة دعواتهم .

والشعوب المسلمة ــ وقد أضحى معظمها ريشة تكيف أوضاعها وتتحكم فى مصائرها عواصف كتلتى الشرق والغرب ، وكمية مهملة تعبث بآمالها وآلامها السيطرة الأجنبية ، وقطيعا من الأنعام تسخرها وتستغلها وتستبد بها الحكومات الجائرة الاقطاعية .. هذه الشعوب اليوم فى أمس الحاجة الى دراسة شخصيات أولى العزم من الرسل ليكونوا لها قدوة فى نضالها ، وعنوانا فى طموحها ، والى دراسة فلسفة دعواتهم ، ليستشفوا منها أدق المعانى التى تضىء لها الطريق الى الحق والحرية والقوة ، وتجلس معها فوق هامات العزة والسؤدد والكرامة .

ولعلى بعد ذلك أكون قد قدمت فى هذا البحث للشبيبة

المسلمة ، زادا طيبا يسمو بأذهانها ويرتقى بأفكارها ، ويلتقى مع نضارة عقولها ، وقدمت لها تحليلا قويا يجتذبها الى أولى العزم من الرسل ، الذين كانت شخصياتهم قدوة للأجيـــال التى ترغب فى الحيـــاة ، وحياتهم صفحات ناصـــعة من الكفاح والتضحية والثبات ، وستظل الى الأبد مشاعل تضىء الطريق للأجيال العزيزة الكريمة ، التى تأنف أن يهمل لها وضع ، وتأبى أن يهان لها كيان !.

والحمد لله أولا وآخرا ..



محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

* * *

ظهر للمؤلف حديثـــا

- منهج الاسلام : العقيدة والشريعة .
- الشباب المســلم فى مفترق الطرق . ٥ حلقـــات
- الأخــلاق المتبولية المزعومة .
- رسائل الفكرة الاسلامية ٥ ٥ رســـائل

❋ ❋ ❋

وقريبـــا ان شـــاء الله

- العقيدة والقوة معـــا . طبعـــة ثانيـــة
- تأثيم الذمة فى نصح الأمة . » »
- ليس حكم الاســـلام . » »
- مفتريات اليونسكو على الاسلام . » »
- الاســـلام ومكانة الدولة . طبعـــة أولى
- أسس الحكم فى الاســـلام . » »

دار العلوم للطباعة

القاهرة، ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨١/١٨٩٦

الترقيم الدولي : ٩ — ٦٩ — ٧٣٢٨ — ٩٧٧